تونى بارنت

علم الاجتماع والتنمية

ترجمة وتقديم

د. سمير عبد العزيز محمد يوسف

أستاذ علم الاجتماع المساعد

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٩٩٢

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج-م-ع

مقدمة الترجمة العربية

إن علم الاجتماع هو العلم الذى نشأ كرد فعل للتغير المفاجىء فى عالم مضطرب ، وقد حاول علماء الاجتماع ان يوجدوا نوعا من الاستقرار والنظام فى هذا العالم المتغير والمضطرب ... فجذور علم الإجتماع قامت كمحاولة لفهم التغير ... إننا نجد فى التغير الجذرى الذى حدث فى أوربا فى بدايات القرن التاسع عشر جذورا لعلم الاجتماع وبدايات لعلم اجتماع التنمية ، ولذلك يعتبر ظهور علم اجتماع التنمية حديثا مع النهضة العلمية الحديثة - وقد ارتبط ظهوره بظهور المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة والتى ظهرت حديثا بالمجتمعات الغربية نتيجة للثورة الصناعية والسياسية وما نشأ عنهما من تغيرات بنائية واجتماعية ... وعلى ذلك فلقد استمد علم الاجتماع بوجه عام وعلم اجتماع التنمية بوجه خاص قوة دفع من هذه الظروف - ظروف النشأة - كما تطور بشكل هائل خلال فترة زمنية قصيرة بالنسبة لتطوره التاريخى فى باقى الفترات ... فلقد كان علم الاجتماع محاولة قام بها مفكرو هذه المجتمعات لمواجهة المشكلات التى ثارت خلال تلك الفترات ، ولذلك يعتبر علم الاجتماع بهذه النشأة الغربية الحديثة نتاجا للتغيرات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية ، ومرتبطا أشد الارتباط بهذه النشأة وظروف تلك المجتمات هذا الارتباط الشديد بين نشأة العلم وظروف هذه النشأة المرتبطة بظروف مجتمعية غاية فى التغير والتحول ، ترتب عليها عدم ملاءمة هذه النظريات والمجتمعات المختلفة فى ظروفها التاريخية ، وإذا نظرنا إلى كل من "سان سيمون" وتلميذه "أوجست كونت" فنجد أنهم يعدون كعلماء اجتماع للتنمية ، وهذه حقيقة الأخير على وجه الخصوص . ففى خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت نظريات كثيرة ، حاولت تفسير عمليات التغير التى تحدث حولها . مع التعقيدات التى تحدث فى المجتمع ووجود التخصصات المتعددة ... ولذلك نجد "هربرت سبنسر" ينظر إلى التنمية على أنها تنمية من الداخل ، وأن المجتمع ينمو داخليا كما يحدث فى الأجسام الحية - تكاثر الخلايا - والأنقسام فى الجنين ... ونجد تونيرمثلا ... له رأى فى التنمية يشبه ذلك وهو أن التنمية تحدث من الداخل ولذلك نجده يهتم بالتغيرات الاجتماعية والاخلاقية على أنها أساس التغير بالمجتمع ، وبين التغير والانتقال المفاجىء والذى لخصه فى

مصطلحات تمثل نمطين لقطبين مختلفين ... أما إميل دور كايم فيتكلم عن نمطين للتضامن الاجتماعى (العضوى والميكانيكى) وهى خاصية المجتمعات ما قبل الصناعة وبعدها ...

ولابد من التأكيد على أن لنظريات "دوركايم" تأثيرا كبيرا على علم اجتماع التنمية . فحتى منتصف الستينات ومعظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين قد بحثوا وفكروا فى التنمية والتغير قد تساؤلوا وفكروا بنفس طريقة دوركايم ، كما أن أفكار دوركايم كانت سائدة وتعكس ما يراه معظم الغربيين من آراء ومعتقدات ، وخاصة لتحقيق نمط معين من المجتمع ومن السياسة ، والتى تطرح الشرعية القانونية على الوضع السائد لشئون الدولة ، ولقد استمر هذا الفكر التقليدى حتى الآن ، إذن ركز دوركايم على شرح التغير فى ضوء الروابط والعلاقات الاخلاقية أو ما سماه "بالتضامن الاجتماعى" وقد أكد على عمليات التطور الاجتماعى ولقد تأثر بعض المنظرين المحدثون فى علم الاجتماع والتنمية امثال "رودفيلد" وبارسونز ، و"ليفى" "وايزيستاد" و"ولبرت مور" و"وولت روسو" بأعمال دوركايم عن التغير ووجدت آراؤه صدى وتقبل لديهم إلا أن كتاباتهم كان ينقصها فى بعض الأحيان البعد التاريخى والتحليل العميق ولا يمكن آن نهمل الدور الأساسى الذى قدمه ڤيبر للتنمية ، وذلك بدراسته للنظام الرأسمالى ، وكتابه «اخلاقيات البروتستانت وروح الرأسمالية» ، فدراسته للرأسمالية كانت جزءا من دراسة كبيرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية فحص فيها عدة مجتمعات مثل فلسطين القديمة ، والهند والصين وغرب أوربا محاولا استخلاص نتائج من مجتمعات ذات توجهات مختلفة وأسباب انتشار الرأسمالية الصناعية ، وقد ربط بين المعتقدات الدينية ونشأة المذهب "الكالڤنى" عند المسيحيين فى أوروبا وهذه النشأة الرأسمالية ... كما أعطى اهتماما كبيرا بالنواحى الثقافية وما يسميه "بالسلوك العقلانى أو الرشيد" وقد تبلوت هذه الأفكار فى الستينات حيث تبنى هذه الأفكار كثير من المفكرين مثل "داڤيد مكليلاند" ويختلف ڤيبر عن غيره من التطوريين فى أنه لا يرى ضرورة وجود نمط للتنمية فى التاريخ ، وأن المجتمعات لابد وأن تفهم من خلال ظروفها الخاصة ، وليس فى ضوء نظريات عامة كالتى انتجها "دوركايم" ، فتأثير "ڤيبر" على التنمية والفكر الاجتماعى ليس مباشرا كتأثير "دوركايم" . إنه تأثير غير مباشر - اختيارى- وقد اعطى للتاريخ اهتماما كبيرا . وقد تبنى آراء ڤيبر عن الترشيد والعقلانية والتخطيط والنمو والانتقال من التقليدى إلى الحديث كثير من المفكرين ... فعلى سبيل المثال ... نجد "تالكوت بارسونز" ومن عملوا معه قد

اكدوا على أهمية القيم فى تحديد سلوك الناس ، ونجد ذلك واضحا فى أعمال "دافيد مكيلاند" ، حيث ركز على العوامل الداخلية والقيم والدوافع لدى الناس ، وبالتالى فنجد انعكاس هذا الفكر النظرى على الممارسة والنظر لمشكلات التخلف والفقر على أنها نتاج للفكر التقليدى غيرالرشيد وغير العقلانى ، وبالتالى فإن الحل يقع على البرامج التعليمية والمساعدات الفنية التى تهدف إلى تحقيق الانجازات للشعوب المتخلفة ...

وبينما أعطى ڤيبر اهتماما خاصا للدراسة التاريخية إلا أن الذين تأثروا به أخذوا من نظريته ما يختص بآراء الناس وثقافتهم وقيمهم وأثر ذلك على التنمية ، كما أخذوا عنه فكرة الرأسمالية وما كتبه ڤيبر عن "السلوك العقلانى أو الرشيد Rational Behavior .

مما سبق يتضح أن علماء الاجتماع الأوائل قد اهتموا بإقامة نماذج مثالية تعكس التناقض بين المجتمع القديم التقليدى والمجتمع الحديث أو الجديد مستندين إلى نزعة تطورية إنعكست فى هذه الثنائيات التى قدموها ، ومن هؤلاء العلماء "سير هنرى مين" ، و"تونيز" و"دوركايم" و"ماكس ڤيبر" والانماط المثالية والتى أسماها "بالجيماينشافت" و "الجيزلشافت"

كما أن هناك اختلافات جوهرية فى المنطلقات النظرية لعلم اجتماع التنمية واتجاهاته ... سواء كان اتجاها ماديا ... - والذى أرسى دعائمه كارل ماركس - أو اتجاها مثاليا والذى أسسه ماكس ڤيبر - فلقد اهتم ماركس وڤيبر بنشأة النظام الرأسمالى بوصفه أسلوبا للتنمية ، ولقد نظر ماركس إلى التنمية الرأسمالية أو التحديث بوصفها عملية بدأت فى أوربا ثم سادت فى العالم كله واعتبر أن الرأسمالية نتيجة من نتائج التقدم التكنولوچى والصناعى وبالتالى ظهور السوق العالمى وزيادة عدد المدن والتوسع فيها وهجرة العمالة اليها من الريف ... وبالرغم من أن كل من ماركس وڤيبر قد تبنا اتجاها تاريخيا - بنائيا إلا أنهما إنطلقا من وجهتى نظر متعارضتين فى تفسير نشأة النظام الرأسمالى ، حيث درس ڤيبر العلاقة بين المعتقدات الدينية وعلاقتها بالنظام الاقتصادى ... إلخ . أما ماركس فقد درس نشأة النظام الرأسمالى من خلال النظام الإقطاعى ثم ظهور المشروعات الرأسمالية وما يحدثه ذلك من اغتراب للمجتمع وتفكك ... إلخ .

ولم يقتصر كل من كارل ماركس وماكس ڤيبر فى دراستهم للرأسمالية على أثارها

الاقتصادية بل درسا آثارها على المجتمع ككل سواء على بنائه الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى ... إلخ . وتعد كتابات ماركس محاولة لدراسة المجتمع الاقطاعى التقليدى وتحوله إلى مجتمع برجوازى حديث ... وتعد دراساته عن المجتمع الزراعى إسهاما فى تحليل المجمتع التقليد ى، فنجده يحلل نظم الحكم البريطانى فى الهند وبذلك فهو يحلل عملية التنمية فى مجتمع تقليدى متخلف .

– ولقد تعرضت هذه النظريات السسيولوجية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر . لكثير من النقد كما ظهر بها كثيرمن الخلط بين مفاهيم هامة فى العلم ... كمفهوم التغير والتطور والنمو والتقدم ، ففكرة النمو غالبا ما تختلط مع فكرة التطور والتقدم ... كما انتقدت لعدم ملائمتها للتطبيق على الظواهر الاجتماعية وطبيعة العلاقات بينها ، كما لم تستطع هذه النظريات تفسير التخلف فى الدول النامية ، خاصة تفسيره من خلال العلاقات العالمية بين الدول المستعمرة والدول المستعمرة ، ثم من خلال السياسة الامبريالية الحالة . كما تميل النظرية التطورية إلى النظر إلى المجتمعات المتخلفةعلى أنها هى المسؤلة عن فشلها حيث أنها كيانات مغلقة وأن أسباب تخلفها يرجع إلى طبيعة أبنيتها الثقافية التقليدية وبالتالى فهى تحمل هذه المجتمعات – النامية – عبء تخلفها . وهنا تتجاهل التاريخ السياسى والدور الذى قام به العالم الغربى فى تشكيل ابنية هذه المجتمعات ... فهى تتضمن تحيزا ايدولوچيا ... فلقد قدمت هذه النظريات وصفا للمجتمعات التقليدية والبدائية والمجتمعات الحديثة – المتقدمة – ولكنها لم تعط تفسيرا لأسباب التغير والتحول وديناميات .

وبالتالى لا يمكننا أن نفهم التنمية فى دول العالم الثالث فهما واقعيا صادقا من خلال هذا التراث الاجتماعى وهذه النظريات ... إن المفاهيم التى ألفناها من علم اجتما ع القرن التاسع عشر تعد محدودة ومحلية ولا نستطيع أن نفسر بها البناءات الاجتماعية العالمية فى الوقت الحاضر وهذا التفاوت العالمى الذى نعيشه اليوم بين من يملك التكنولوجيا ومن لا يملكها وما يرتبط بذلك من تفاوت اجتماعى كبير بين عالم متقدم وغنى وعالم متخلف وفقير وعلاقة كل ذلك بالنظام والنسق العالمى .

إذن نستطيع القول أن علم اجتما ع التنمية لا يمكن أن يعالج مشاكل العالم الثالث فى

الوقت الحاضر بعيدا عن الموقف والاطار العالمى - التاريخى ... فالمفكرون الأوربيون اقتصاديون واجتماعيون قد ركزوا على قضايا البلاد الصناعية المتقدمة ، غافلين التنظير لأوضاع البلاد النامية * وكانت الدراسات التنموية ذات طابع استرجاعى ولم تأخذ طابعاً مستقبليا يأخذ فى اعتباره المجتمع الإنسانى العالمى ويمس قضية التنمية فى جوهرها وعلى اختلاف مستوياتها ، وعلى أساس أن التقدم إذا حدث فى مكان ما فى العالم لابد أن يتأثر به باقى الدول .

ولقد حصلت معظم هذه البلاد النامية على استقلالها ، وتسلم الحكم حكومات وطنية . ولكن هذه الحكومات واجهت تركه مهلهه ومشاكل طاحنة سواء الناتجة عن عملية التحضر التى تمر بها هذه الدول منذ بداية القرن السابق وهى عملية مرتبطة بتداعى أنماط العمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى ، أو المشاكل المرتبطة بتعاقب أنظمة حكم متعددة سواء كانت أو توقراطية أو ملكية إلخ هذا بالإضافة إلى التواجد الاستعمارى وما أحدثه من مشكلات لهذه الدول .وإذا أخذنا تجربة مصر كدولة من هذه الدول نجد أن ضباط الجيش . قد حلوا محل الحكم الملكى وتسلموا دولة استنذفتها الظروف السابق شرحها ولقد تميز الواقع الاقتصادى فى مصر بوجود فجوة اخذت فى التزايد بين سكان مصر ومواردها بالاضافة إلى سوء توزيع هذه الموارد والهوه الشديدة فى هذا التوزيع بين فئات المجتمع . وبدأت هذه الدول فى البناء الداخلى وبدأت فى تنمية مجتمعاتها بغرض اللحاق بالدول المتقدمة . إلا أنه ظهرت مشكلات عديدة كان من شأنها أن تعطل حركة التنمية وأهم هذه المشكلات طبيعة البناءات الاجتماعية التى ورثتها هذه الدول من عصر الاستعمار ، هذا بالاضافة إلى التحديات المتصلة بالنظام الدولى الجديد كما زاد الموقف تعقيدا ذلك التفاوت الاقتصادى والاجتماعى بين هذه الدول النامية من ناحية والدول المتقدمة من ناحية أخرى ... ولذلك بدأ علماء الاجتماع والاقتصاد دراسة التنمية الاقتصادية والاجتماعية واساليبها ودراسة البناءات الاجتماعية بتلك المجتمعات المراد تنميتها من خلال الاسهامات المختلفة التى قدمها كل من "كارل ماركس" و"ماكس فيبر" - كما سبقت

---

* من الأمثلة على ذلك نجد على سبيل المثال "ماكس فيبر قد قام بدراسات فى الاجتماع الدينى والاقتصادى والقانونى لبعض بلاد الشرق ، ولكن هذه الدراسات كانت عبارة عن مقارنات بين الثقافات الغربية والثقافات الشرقية وأن الثقافات الشرقية لم تكن مقصودة لذاتها ، ولكن كانت لفهم الثقافات الغربية فهما أعمق .

الاشارة – ودراستهم عن نشأة النظام الرأسمالى ... وجدير بالذكر هنا أن مؤلف فيبر وجد قبولا شديدا مما أدى إلى انتقاد آراء ماركس بل ورفضها ... إلا أن بعض الدارسين الذين تعمقوا فى فهم دراسات فيبر قد أساءوا فهم فكره فهما صحيحا ، وبذلك تجنبوا الجوانب الايجابية من فكره والمتمثلة فى الفهم البنائى – التاريخى الشامل ... لكن فى النهاية نجد أن فكره كان له الأثر العظيم .

وظهرت اتجاهات نظرية حديثة * لفهم ظاهرة التخلف فى الدول النامية ، إلا أن هذه الاتجاهات قد انطلقت من تصور محدد لفهم الظاهرة ويتلخص فى أن النموذج الغربى للتحديث هو الهدف وأن عملية التنمية تنحصر فى اكتساب الدول النامية لعناصر التقدم الموجودة فى الدول المتقدمة – اتجاه النماذج أو المؤشرات – وأن هناك مراحل معينة لابد أن تمر به الدول المتخلفة وهى المراحل التى مرت بها الدول المتقدمة – الاتجاه التطورى – وتحديد العناصر المادية والثقافية الموجودة بالدول المتقدمة تمهيدا لنقلها للدول المتخلفة لتنميتها – الاتجاه الانتشارى – أو أن النظام الرأسمالى الموجود بالدول الصناعية هو النموذج الذى يجب أن تحتذيه الدول المتخلفة وأنه الأمل الوحيد لتنمية الدو ل المتخلفة .

والملاحظ أن الاتجاهات الخمسة الأولى تتسم بنزعة تطورية محافظة ، وتعتبر امتدادا لعلم الاجتماع الكلاسيكى الغربى ، ولذلك وجه إليها انتقادات حيث إنها لم توضح بكفاءة عملية التغير التى تحدث فى الدول النامية والمشاكل التى تحدث فيها ولم تفسر ظاهرة التخلف ولماذا استمر الفشل فى هذه الدو ل للحصول على الطعام وانتقدت نظرية التحديث ** فى ضوء كثير

---

* الاتجاهات النظرية الحديثة هى :

- اتجاه النماذج أو المؤشرات . – الاتجاه التطورى المحدث .
- الاتجاه الانتشارى . – الاتجاه السيكولوجى .
- اتجاه المكانة الدولية . – الاتجاه الماركسى الحديث .

** إن نظرية التحديث هى اتحاد كل من التطورية والوظيفية والوضعية . وهى تتسم بعدة سمات أهمها أن التنمية تحدث من داخل المجتمع ، أى أن العوامل الخارجية مثل الاحتلال أو التبعية أو العوامل الثقافية ليس لها تأثير هام وأن التنمية تتبع خطوات محددة أو أنماطا واحدة فى كل المجتمعات ، ولذلك يجب على المجتمعات المتخلفة أن تحدد نماذج من الخبرات الماضية لبعض البلاد المتقدمة ، لتتبع نفس الخطوات وتتبع نفس الأنماط لتصل إلى نفس النتائج التى وصلت إليها هذه الدول ، والنتيجة النهائية هى الاستقرار السياسى والثراء . ولقد لخص «روستو» هذا المدخل فى مراحل خمسة هى الحركة المرحلية التى يمر بها المجتمع التقليدى والظروف السابقة لمرحلة التنمية ثم الانطلاق نحو النضج وأخيرا عصر الجماهير الاستهلاكى .

من التجارب التى تمت فى كثير من الدول الافريقية والأسيوية والتى حصلت على استقلالها فى هذه الفترة التاريخية ... كما حدث أيضا فى دول أمريكا اللاتينية وهى سابقة فى استقلالها ببضع سنوات .

وكانت الانتقادات الأساسية أن هذه الدول النامية التى تختلف فى ظروفها التاريخية (تاريخها مع الاستعمار وتأثير هذا الاستعمال عليها أو تاريخها السياسى والثقافى ... إلخ) لا تستطيع اتباع الخطوات التى اتبعتها الدول التى نمت من قبل من خلال طريق طويل مستهلك نحو التنمية – وقد اكدت التجربة عدم حدوث ذلك وفشله ... إن معظم التحليلات لم تكن كافية وأنها لم توضح ما يحدث فى دول العالم الثالث بشىء من الواقعية ولذلك ظهرت نظريات تتساءل عن الاستعمار وتاريخه مع الدول النامية وتأثره عليها . وبذلك بدأت النظرة تتغير الى هذه المجتمعات كوحدات مغلقة على ذاتها ، وأكدوا ضرورة مناقشة مشاكل التنمية لكل مجتمع على حدة ولكن فى الوقت نفسه علاقة هذا المجتمع وموقفه من النسق العالمى ، Relation its place in world system إذن نستطيع أن نقول إنه إزاء الصعوبات فى فهم الدول النامية أعاد علماء الاجتماع دراسة مصدر آخر من الفكر الاجتماعى وهى الافكار القائمة على الفكر الماركسى ، أمثال ليون تروسكى ، وفلاديمير ، وهيربرت ماركيوز ، ومانديل ولقد هاجم "فرانك" نظرية التحديث بعنوان مثير وهو "علم اجتماع التنمية وتخلف علم الاجتماع" "The Sociology of Development and the Underdevelopment of Sociology" واعتبر أن هذه النظريات قد فشلت فى التعريف الصحيح لأنواع العمليات الاجتماعية والاقتصادية فى الدول النامية ، بل إنها عديمة الفائدة ، واستشهد بدراسات تاريخية لحالات مثل "شيلى" "والبرازيل" وبين فى دراسته عن امريكا اللاتينية أن التنمية فى وضعها الحالى ، هى نتيجة للنمو الرأسمالى . ومصادرة الفائض الاقتصادى من الكثيرين واعطائه للقلة . كما أوضح التناقضات فى النظام الرأسمالى والتنمية ... وما نتج عنه وما أسماه بالتخلف التنموى فى الدول التابعة والتى يصادر فيها الزائد من انتاجها ، والتنمية الاقتصاية للمدن المركزية والتى تستولى على ذلك الفائض ولقد اعتبر "فرانك" أن العلاقات والمساعدات بين الدول الغنية والفقيرة ما هى إلا علاقة تعاطف وينتج عنها مزيد من الفقر والتخلف ...

ولذلك نجد أن "فرانك" وآخرون – أصحاب نظرية التبعية Dependency theorists قد

أثارت أفكارهم تساؤلات جديدة عن التنمية بطريقة جديدة ... وقد نظروا إلى مشاكل العالم الثالث على أنها يمكن أن تفهم كعائد للاستثمار أو الاستغلال من جانب العالم المتقدم . أما العوامل الداخلية كالقصور أوالنقص فى الموارد الطبيعية وصراع الطبقات أو الزيادة السكانية ... إلخ يمكن إعادة النظر فيها ... وبذلك نجد أن نظرية التبعية قد أمدتنا بنموذج بسيط لطبيعة وأصل التخلف ... ولكنها قد فشلت فى مواجهة بعض الأسئلة الهامة والمحورية فى نظريات التحديث ... فمثلا نجدها لم تعط وزن حقيقى للدور الذى يقوم به كل من الأفكار و الثقافة فى التنمية ... كما أكد ذلك "ڤيبر" ... حيث أكد على الدور الذى لعبته المعتقدات الدينية ... وهو البعد الغائب فى نظرية التبعية ، كما أن نظرية التبعية تعمم على كل المجتمعات دون النظر لظروف المجتمعات المختلفة ... فهى لم تفرق بكفاءة بين ما هو تاريخى وبين ظروف كل مجتمع على حده ...

ومن العلماء من أخذ خليطا من الأفكار الماركسية ونظرية التحديث ليكون فكرا جديدا للتنمية أمثال بارنجتون مور B. Moore والذى درس تاريخ كثير من الدول المختلفة – مثل فرنسا والولايات المتحدة واليابان والصين – وقد توصل إلى وجود طرق مختلفة للتنمية ...

كما وجد نمط من النظريات يعتبر تطور لنظرية التبعية ... وهو نظرية النسق العالمى World System Theory إلا أنها تختلف عن نظرية التبعية فيما تلقية من اهتمام للخواص التاريخية لمناطق مختلفة من العالم ، ولا تعمم بنفس طريقة نظرية التبعية ... فنظرية النسق العالمى تعطى اهتماما للتاريخ والخواص التاريخية وهى ترى أن مشاكل العالم الثالث هى نتاج لعلاقات استغلال تاريخية بين الدول المتقدمة والمجتمعات النامية .

وهنا نجد أن المنظور قد تغير تماما وأصبحت التنمية لا ينظر إليها على أنها مشكلة تواجهها مجتمعات منفصلة ، بل ينظر إليها من خلال النسق الأقتصادى والسياسى العالمى .

ويؤكد هؤلاء العلماء على التناقض الأساس القائم فى العالم اليوم وهو نتيجة للعلاقات غير المتكافئة والقائمة على الاستغلال بين الامبريالية من ناحية وشعوب العالم الثالث من ناحية أخرى ، حيث تراكم رأس المال والغنى فى الشمال من العالم والدول الفقيرة فى الجنوب ودور السوق العالمية والشركات متعددة الجنسيات ... إلخ .

وهذا الكتاب الموجود بين أيدينا يعتبر نموذجا للمحاولات الجادة لعلماء اجتماع التنمية

فى البلاد الغربية . فلقد درس "بارنت" بعمق شديد التراث والفكر الاجتماعى دراسة نقدية واعية متخذا موقفا نقديا من هذا الفكر ، ولم يتحيز ولم يمجد نظريات أو أفكار بعينها ، كما لم يتخذ موقفا محافظا أو تقليديا من هذا التراث ... والمؤلف مكون من ثلاثة أجزاء خصص الجزء الأول وهو مكون من فصلين كمدخل نظرى للدراسة فتعرض فى لفصل الأول لبدايات علم الاجتماع والنشأة وتطور النظريات الاجتماعية ونظريات التنمية ودور النظرية فى العلم . وناقش فى الفصل الثانى نظريات التنمية فى ضوء خبرات دول العالم الثانى والانتقادات التى وجهت إلى نظرية التحديث وظهور اتجاهات حديثة فى فهم التنمية فى العالم الثالث وأثر كل من نظرية التبعية ونظرية النسق العالمى فى الفكر فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة والانتقادات التى وجهت إليها من داخل الماركسية التقليدية ذاتها خاصة ما نشره "وارن" .

أما الجزء الثانى وهو الجزء الأكبر من الكتاب ويحتوى على ستة فصول فقد خصصه لمناقشة الريف والمدينة ففى الفصل الثالث بعنوان التحضر والمدنية . درس نمو المدن وعمليات التحضر وفهم طبيعة الحياة الاجتماعية فى المدن ، وعلاقة ذلك بعمليات التنمية ، كما ناقش مفهومى الاستيعاب والتكامل وكيف استخدمت معظم الدراسات لهذه المفاهيم ، لكى تفهم كيف أصبح الغرباء جزءا من حياة المجتمع الحضرى السائد ، كما درس التحضر ونظرية التحديث والنقد الموجه لهذه النظرية فى فهم الظاهرة ، ثم تحليل الماركسيين للتحضر ، مستشهدا بدراسات أمبيريقية وبالواقع الذى درسه الكاتب أو شاهده ليفند أو بعض مثل هذه النظريات كما تعرض لبعض النماذج الخاصة بالتحضر ومنها على سبيل المثال نموذج "كاستل" والثلاث مراحل كما تعرض لهجرة العمالة الزراعية إلى المدينة وكيف أنها عملية معقدة والتى تربط المدينة بالريف اقتصاديا وثقافيا .

وقد ناقش فى الفصل الرابع التصنيع وخاصة فى دول العالم الثالث ، وكيف أن الصناعة كانت إحدى المشكلات الهامة والأساسية لعلم الاجتماع ، وأنها أيضا تحظى باهتمام علم اجتماع التنمية ... وتعرض لبعض الكتاب فى علم الاجتماع الذين كتبوا عن المجتمع قبل الصناعى امثال هنرى مين ، ومن خلال دوركايم وتونيز الى ردفيلد واتزايونى وايزنستاد فى الستينات والسبعينات من القرن الحالى ، حيث كانت محاولاتهم لوصف سمات المجتمع الصناعى والعمليات التى من خلالها يحدث الانتقال من مجتمع ما قبل الصناعة الى مجتمع

صناعى . وقد ناقش مشكلات التصنيع فى الدول النامية وكيف كان التغير بطيئا ، وهل كان التغير من الداخل فقط وما هى العوامل الخارجية ، وهل هناك تاريخ واحد للتصنيع أو أن هناك اختلافا حول هذا التاريخ وقد تعرض للنظريات الخاصة بالتنمية فى ضوء التجارب التى مرت بها مجتمعات العالم الثانى فى هذا المجال - التصنيع - ومدى الاختلافات والتناقض بين المنطلقات النظرية والواقع الفعلى ، ودور الاستعمار وكيف نمت المجتمعات الصناعية على حساب المجتمعات المتخلفة أو المستعمرة كما تعرض لآراء ڤيبر والتصنيع ، أى آراءه فى نظام العمل والعمالة والاختراعات وموقع ذلك من التغير الاجتماعى والتاريخى .

كما ناقش مايعرف بالنظريات المحورية والتصنيع من خلال أعمال كل من "كلارك كير" و"هاربن" ومتطلبات الانتاج الصناعى . كما ناقش أثر العزلة التى حدثت خلال الحرب العالمية الثانية وحاجة دول العالم الثالث للتصنيع وفكرة استيراد الصناعات البديلة وفشلها وظهور نظرية التبعية كرد فعل لهذا الفشل ... وأخيرا بين أن مشكلة التصنيع هى مفتاح مشاكل علم الاجتماع بوجه عام وعلم اجتماع التنمية بوجه خاص ، وقد عرض لنظرية التحديث القائمة على رأى "دوركايم" و"ڤيبر" واللذان يؤكدان على أن التصنيع يؤدى إلى التغيرات فى اتجاهات الناس وعلاقاتهم ... ويناقش عملية الترشيد وڤيبر ... كما حلل أصول التصنيع لدى كل من الماركسيون والدوركايميون ... والاتجاهات المنبثقة من كليهما ... وقد تعرض لبعض التجارب التنموية ومنها تجارب ما يسمى "بالنمور الأربعة" ... هنج كنج ، وكوريا الجنوبية ، وتيوان ، وسنغافورة - ودور وأنشطة الاتحادات المتنقلة عبر القارات ... فى الدول النامية ومشاكل التحديث والصناعة ...

وفى الفصل الخامس وعنوانه التنمية الزراعية ودخولها السوق ... فيتعرض "بارنت" فى هذا الفصل لتجارب الدول النامية فى التنمية الزراعية ... ويبين أن النشاط الزراعى هو النشاط الرئيسى لهذه الدول وأن هناك مشكلة هامة بالنسبة للتنمية لهذه الدول وهى كيفية الانتقال من الانتاج المعيشى والمجتمع المعيشى إلى إنتاج من أجل السوق ودخولها فى مجموعة كبيرة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية أو ما يسمى "بالتغيرات الزراعية والريفية" وقد تعرض لتاريخ الاستعمار مع هذه الدول والدعوة التى أعلنها الاستعمار تحت شعار "نشر الحضارة" وساق الآراء التى فندت هذه الدعوة والأسباب الحقيقة وراء الاستعمار وقد استشهد بتاريخ بعض المستعمرات بأفريقيا ودور الاستعمار فى استغلال هذه الدول لصالحه ولصالح اقتصادياته

ولتنمية مجتمعاتهم ... وكيف كانت فترة الاستعمار بداية لإقامة عمليات للإنتاج الجديد ، ووجود فئات اجتماعية جديدة ، وظهور نظريات فى علم الاجتماع والتنمية لدراسة التنمية الرأسمالية وتحولا كبيرا فى التنظير نتيجة تحول دول العالم الثالث حيث اصبحوا مشاركين فى السوق العالمى للزراعة والسلع والعمالة .

وقد تعرض لمدرستين للفكر حاولت كل منهما شرح أوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات الخاصة بالسوق ، وغير الخاصة بالسوق وهاتان النظريتان معروفتان بأسم الواقعية والشكلية ... كما ناقش هذه التغيرات والتحولات فى الريف ومحاولة فهمها من خلال تراث علم الاجتماع والدوركايمية التقليدية وكيف فسرت المشكلة من خلال تغير قيم أهل الريف ليستجيبوا لحوافز السوق ... وبين أوجه القوة والقصور فى هذا الفهم والتحليل ... ثم عرض للماركسية والتغير الريفى وبين النقد الذى وجه لها ... وعلى ذلك فقد توصل إلى أن قرى الدول النامية قرى فقيرة وبدائية وحيازاتها صغيرة . وبالتالى فالانتاج الزراعى ضئيل وإنتاج من أجل المعيشة يكفى لأهل البيت بالكاد ... هذا بالإضافة للاستغلال المستمر من جانب السلطة سواء كانت سلطة أهلية أو سلطة مستعمر ، هذا الاستغلال سواء عن طريق الضرائب الباهظة أو فوائد ديون ... إلخ وأن بداية اتصال هذه المجتمعات بالسوق من خلال الاستعمار .

ويقدم بارنت فى الفصل السادس اسهاما كبيرا فى فهم التنمية الريفية والفروق الاجتماعية ، من خلال تحليل المداخل النظرية لدراسة التغير والتحول فى ريف العالم الثالث ودرس الفروق بين المجتمعات القائمة على التسويق واللاتسويق والمشكلات التى نتجت عن دخولها فى علاقات السوق والنظام العالمى وتغلغلها فى الاقتصاد النقدى وما يمكن أن ينتج عن ذلك من تغيرات اجتماعية كبيرة ، والتأثيرات المختلفة التى تحدثه المراكز الحضرية على هذه القرى ، كما عرض لبعض المشكلات التى ظهرت عندما حاول علم الاجتماع فهم العلاقة بين هذه المجتمعات فبينما نجد أن هناك تقسيمات للفئات الطبقية مثل طبقة البروليتاريا والطبقة البرجوازية نجد أيضا اشكالا مختلفة متعددة ومختلطة للتنظيم الاجتماعى والتى تظهر على المدى الطويل للإنتاج المعيشى وتمر من خلال المزارع البسيطة الى البروليتاريزم وخلال هذا التحول يمكن أن تلعب العوامل الثقافية دورا هاما فى تقرير النتائج الخاصة بالتفاعلات بين التنظيمات الاجتماعية فيما قبل الرأسمالية وما بعدها ...

كما ناقش الثورة الخضراء واستخدام التكنولوجية لمنفعةالبعض - أثرياء العالم الثالث ولضرر الأخرين - ففقراء الريف من العمال والإجراء وأصحاب الأراضى الصغيرة الحجم - وتزايد الفروق ، وانتشرت الزراعة كعمل تجارى ودخول الشركات التجارية العالمية عبر الدول بغرض الربح والاستغلال فهى لا تضع فى حساباتها أو ضمن أهدافها مصالح فقراء الريف ولكنها تعمل مع الدول واثرياء العالم الثالث ، للذين يمثلون مظهر من مظاهر النسق العالمى ... كماناقش المجاعات التى حدثت فى بعض الدول النامية وأوضح أنها نتيجة للفقر والجفاف لكن الجفاف طبيعى ولكن الفقر عملية اجتماعية ...

ويناقش "بارنت" فى الفصل السابع دور الدولة والمداخل النظرية والنظريات الحديثة التى تناقش هذا الدور وهل تخدم الدولة مصالح واهتمامات فئة على حساب أخرى ، أى تخدم الدولة مصالح واهتمامات الأثرياء ولا تعير اهتمامها بالفقراء ، أم هى تعمل بطريقة محايدة مع جميع الفئات الاجتماعية ... ومن خلال الدراسة التاريخية وعلى سبيل المثال نجد أن الانتقال من النظام القائم على اللاتسويق إلى التسويق نجد أنه كان يدار من قبل الدولة ... ولقد أوضح "بارنت" مركزية الدولة فى التنمية والنمو الاقتصادى فى دول العالم الثالث ... ولقد عرض للاتجاهات النظرية والتى نظرت للدولة بصورة مختلفة نتيجة لهذه المنطلقات النظرية فنجد نظرية التحديث تنظر للدولة على أنها نوع من الحكم المحايد ولكن الاتجاه المادى يتساءل أسئلة أخرى مثل لمن تعمل الدولة ولصالح من ... وقد ضرب "بارنت" مثالا لتدخل الدولة وما تحدثه من مشاكل بالتعليم فى دول العالم الثالث والدول المتقدمة وأوضح أن هناك مشاكل خطيرة مرتبطة بذلك ... ولقد ناقش النظريات الخاصة بالتعليم والنمو الاقتصادى "لدور" Dore ، كما تعرض لنظريات كل من "إليسن" و"ريمر" و"فرير" وأورد تجارب لبعض المجتمعات النامية مثل بعض البلاد الأفريقية - وقد تبين فشل التعليم فى هذه المجتمعات فى تحقيق أهدافه ... وهى إنتاج أناس جيدو التمرين لسد حاجة الدولة ... وليس التعليم لمجرد الحصول على مؤهل ووظيفة حكومية فقط وما يصاحب ذلك من تدمير لحب الاستطلاع ...

أما الفصل الثامن فنجد مناقشة جذابة وشيقة بل وممتعه للنوع Gender والتنمية حيث يبين تبعية المرأة للرجل وخضوعها له فى كل المجتمعات ... ويبين أن هذه التبعية ليست طبيعية ولكنها ثقافية ... كما يعرض لنا الاتجاهات التى تناولت دور المرأة فى التنمية وخاصة فى

المجتمعات الزراعية المعيشية حيث تتحمل المرأة العبء الأساسى والدور الكبير فى العمل وتتلقى الجزاء القليل ... ويعرض لكثير من الابحاث التى تدعمها النسب والتى تؤكد على دور المرأة فى انتاج الطعام وزيادة ساعات عملها عن الساعات التى يعملها الرجل ... ثم يبين أن التنمية تؤدى أحيانا إلى عدم أخذ دور المرأة فى الاعتبار فهى غير مرئية للمخططين والسياسيين رغم كل ما تقوم به . فعندما يخطط للتنمية فإن هذا الدور ينسى وبالتالى فإن التنمية تزيد من تبعية المرأة للرجل . والمداخل المختلفة التى درست هذا الدور سواء بدراسة علاقات المرأة بوسائل الإنتاج ، أو تبعيتها للرجل ، هذه التبعية التى لا تظهر مع التنمية فى المجتمعات الرأسمالية ولكنها موجودة فى كل المجتمعات ... ويقدم "بارنت" فى هذا الفصل دليل "موريس" والذى يعرض النسب المئوية للقراءة والكتابة بين الرجال والنساء ليبين نصيب المرأة الضعيف من التعليم ... كما يعرض نفس الدليل – دليل موريس للحياة الطبيعية – معدل المواليد والوفيات والتعرض لبعض الأمراض ... كل ذلك بغرض قياس التنمية بالمجتمعات المراد دراستها . ويؤكد "بارنت" أن هناك تحيزا أكاديميا ضد المرأة حيث أن مؤسسى علم الاجتماع من الرجال ، وان بإستثناء "إنجلز" – الذى كتب عن الأسرة وذكر شيئا عن المرأة لم يكتب أحد عن المرأة ... كما أن الرؤية التى لدينا عن المجتمعات هى فى الواقع رؤية رجال .

أما الجزء الثالث والأخير فيعرض بارنت بعض الإحصائيات والجداول والبيانات المكثفة التى تهدف الى قياس التنمية ... حيث يهدف هذا الجزء من الكتاب الى تعريف وقياس التنمية ويبين "بارنت" أنه قد أجل هذا التعريف وهذا القياس لكى يتعرف القارىء على صعوبة تحديدهم من خلال تعرفه على التنمية ومداخلها وأسسها من خلال فصول الكتاب الثمانية السابقة فتحديد مفهوم التنمية ليس بالسهولة شأنه شأن معظم التعريفات فى علم الاجتماع .

وفى النهاية يمكننا القول أن التتبع التاريخى لنظريات التنمية ينتهى بنا إلى أن التنمية فى الدول النامية لابد وأن تتعدى مرحلة التخلف عن طريق الانتقال من التقليدى الى الحديث وبالتالى فهى تتعرض لمفهوم "معوقات التنمية" وأن الاستغلال الرشيد للموارد هو بداية الطريق نحو التنمية مع أن الاستغلال الرشيد للموارد يتوقف دائما على الظروف التاريخية والاقتصادية لكل مجتمع على حدة ولابد من دراسات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفى ضوء البعد التاريخى للمجتمع المراد تنميته . وبالتالى فالتخطيط العلمى السليم هام وضرورى، ولكن أى

تخطيط وأى ايدولوجية يستند إليها هذا التخطيط ... ولذلك فنظريات التنمية لابد وأن تدرس وتحلل المجتمعات آخذه فى الاعتبار الظروف الخاصة بالمجتمع المراد تنميته ... ولذلك نجد أن العالم قد شهد أنواعا متعددة واشكالا مختلفة من التنمية ...

إن المجتمع الدولى الجديد يمثل انعكاسا لوجود بناءات اجتماعية متمايزة وكما فسر علماء اجتماع القرن التاسع عشر المشكلات التى نتجت عن ظهور الصناعة والرأسمالية ... فإننا نجد نفس الأزمة اليوم وعلى المستوى الدولى ، إن انهزام الولايات المتحدة فى ڤيتنام وأزمة البترول سنة ١٩٧٣م بالإضافة إلى بعض العوامل التى حدثت فى الستينات والسبعينات كونت خلفية ضرورية لإعادة تقييم الحياة فى الدول المتقدمة صناعيا .

وكان ذلك مثار لنقد النظريات الموجودة وظهور أفكار جديدة كانت نتاج ذلك الوقت لتفسر ما يحدث فى دول العالم النامى من مشكلات هى فى الواقع مختلفة كلية فى ابنيتها . وعلينا الآن أن نفكر كثيرا فيما يسببه أغنياء العالم لفقرائه ... سنوات مضت على الدول النامية ولم يفعلوا شيئا ، وعلماء التنمية تناقش وتنقد وتعيد تقييم ما يحدث فى الدول المتقدمة ، وهو مثار لنقد "المادية" واهتمام بما يدور من أفكار فى الدول النامية ، وهل مستقبل التنمية يمكن الحصول عليه من خليط من "إعادة الاكتشاف" واستحسان الممارسات التقليدية ، والأفكار الجديدة والتكنولوجيا الخاصة بدول العالم الأول ؟

كل ذلك يمكن أن يحدث فقط إذا ما أراد الناس حدوثه وفى إمكانهم أن يفعلوا ذلك ويحققوه إذا ما حصلوا على القوة الاجتماعية التى تحمى مصالحهم على المدى البعيد .

القاهرة فى اكتوبر ١٩٩١

سهير عبد العزيز

مقــدمة

يهتم هذا الكتاب بعلم الاجتماع والتنمية ، ولا يقوم على حسابات عامة للتنمية ولا يبحث في السياسة الاجتماعية لدول العالم الثالث فحسب . بل إنه يبحث في كلا الاتجاهين . ولذا فهو كتاب مخالف تماما عن غيره .

ولقد ركزت على علم الاجتماع وليس على السياسة أو التنمية ، لأن فى اعتقادى أن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا يقدمان دائما رؤية لمشاكل التنمية فى دول " العالم الثالث " (والتى يهتم بها هذا الكتاب) . وفى الدول "الصناعية والمتقدمة" ، فالمنظور الاجتماعى أو الرؤية الاجتماعية أداة فعالة وقيمة .

ولقد زاد اهتمامى بالتنمية بطريقة أو بأخرى منذ بداية عام ١٩٦٢ عندما عملت كمدرس متطوع بسيراليون . وفى ذلك الوقت ، كنت أعتقد أن التنمية مشكلة مباشرة للتعليم .

وعدت بعد سنة مدركا أنها ليست القضية ، وأن العملية (على فرض أنها عملية) أكثر تعقيدا وأنها تتطلب فهما تاريخيا وثقافيا ، و فهما للطرق السياسية التى نظمت حياة هؤلاء الشعوب اجتماعيا .

ولقد قمت بالعمل لمدة ١٤ عاما فى قسم دراسات التنمية بجامعة شرق أنجيليا في نورش . والتدريس هنا عبارة عن مدخل للتنمية يشمل العلوم البينية كالهندسة والزراعة وعلوم التربية والرؤية العلمية الاجتماعية . ولقد تعلمت من زملائى وطلابى بعض الطرق التى تسهم فى عملية الفهم . وقد حصلت أيضا خلال هذه السنوات على عدد من الأعمال ، كما واتتنى فرص للعمل فى التنمية بمكتب التخطيط بغينا الجديدة (Papua New Guinea) وفى وزارة التعاون بالأردن وفى مشروع التنمية فى زامبيا مع آخرين ، ولقد تعلمت الكثير فى كل هذه الأماكن .

ومن بين الدروس المستفادة عن قيمة المنظور الاجتماعى ، كنت أشك فيها من قبل . (إن مشاكل العالم الثالث هذه الأيام ليست غياب الأخصائيين الفنيين) ، وإن غياب الأخصائيين الفنيين لم يكن سببا فى مشاكل العالم الثالث هذه الأيام - فبلاد كالهند وباكستان يتوفر فيها الأخصائيون الفنيون ، وإن البلاد التى بها عجز فى هذه الناحية تستطيع شراءهم . إلا أن أهم المشاكل هى المشاكل الاجتماعية والسياسية . وأحد هذه الأمثلة مثال الثورة الخضراء ، وهى

عبارة عن عدة تغيرات تهدف إلى زيادة الإنتاج الزراعى ، والدرس من هذه التجربة (التجربة التى غيرت حياة ملايين من الناس) إن الإنتاج الكفء لا يؤدى مباشرة أو إطلاقا إلى العدالة الاجتماعية ، وربما يؤدى فى بعض الحالات إلى فقر متزايد وبؤس .

إن النهاية فى هذا الكتاب نجدها مصبوغة بصبغة سياسية ، لأن مناقشة أى علاقات إنسانية اجتماعية ترتبط دائما بالقوة والسيطرة على المصادر المختلفة والتى تقوم عليها القوة . فالقوة الاجتماعية تأخذ عدة أشكال ، منها الاقتصادى والثقافى والجنس – وهناك فهم للعلاقة بين علم الاجتماع وتحليل التنمية ، وهذا يعطى تفسيرا لحدوث التنمية أو عدم حدوثها . إن مثل هذه الدراسة توضح الكثير عن الدول المتقدمة وعن مثيلاتها من الدول النامية . وقد حاولت تجنب الفصل أو الانقسام بيننا نحن الذين نعيش فى الدول المتقدمة وبين هؤلاء الذين يعيشون فى الدول المتخلفة (فهناك فروق مجتمعات هذين العالمين) وإلا فقد هذا الكتاب أهميته . ولكننا جميعا مواطنون فى هذه الدنيا ، وتاريخ هذا العالم فى خلال الخمسمائة سنة الأخيرة جعلنا جميعا متشابكين ، فنحن نشارك فى الموارد والخبرات والأفكار ، وهى مشتركة ونتقاسمها بطريقة ما غير متساوية . وعلم الاجتماع يخبرنا بالكثير عن عدم التساوى وكيفية حدوث ذلك . وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب لدارسى علم الاجتماع فى سنواتهم الأولى وكذلك للباحث المتخصص فى هذا العلم . ولخدمة هذا الهدف ، فقد استخدمت اطرا من خلال النص تخدم هدفين ، فهى تزودنا بأمثلة وإيضاحات لبعض نقاط النظرية العامة ، والهدف الآخر فهى توضح الأفكار الصعبة .

والقارىء له الاختيار إما بالقراءة مباشرة من خلال النص أو يلقى نظرة على الأطر المساعدة فى الحصول على معلومات إضافية . ولقد ساعدنى الكثير من الناس فى كتابة هذا الكتاب .

تونى بارنت

نورش سنة ١٩٨٧

الجــزء الأول

مدخل ووجهة نظر

الفصــل الأول

الإحساس بتأثير التنمية

العمالة المهاجرة :

تخيل أنك غير قادر على الحصول على وظيفة فى مسقط رأسك ، ولا تستطيع عائلتك الاستمرار فى مساعدتك ماديا ، وأصبح الموقف صعب الاحتمال . فتجد نفسك مهاجرا إلى مدينة أخرى أو بلد آخر آملاً فى بداية جديدة . وعند وصولك إلى وجهتك فإنك تواجه مشاكل كثيرة تحتاج إلى حلول عاجلة من أهمها الحصول على الطعام والمأوى بأسرع ما يمكن . وتجد نفسك فى حاجة إلى أصدقاء ، وربما تجد نفسك تتحدث بلهجة أو لغة أجنبية وعندئذ فإنك مهاجر من العمال .

تخيل أنك تعيش فى الساحل الإفريقى ، ذلك الحزام الصحراوى أو شبه الصحراوى ويمتد فى النصف الشمالى للقارة . وقد حدث هناك جفاف لعدة سنوات . واختفت المراعى ومات ما تملكه أسرتك من قطعان ، ولا يوجد طعام وفشلت الحكومات فى تقديم المساعدة ورفضت الاعتراف بوجود المشكلة وهى تخشى أن صرحت بذلك أن تفقد البنوك العالمية التى أقرضتها الثقة فيها ولا تقدم لها القروض مرة أخرى .

فإنك تقرر الانتقال إلى العاصمة على بعد ٥٠٠ كم ، وبعد رحلة متعبة معظمها سيرا على الأقدام وأحيانا عن طريق «الأوتوستب» ، وتصل لتواجه مشكلة الطعام ، المأوى ، العمل والأصدقاء . ومرة ثانية فأنت العامل المهاجر .

إنه من المحتمل فى الحالة الأولى أنك لا تجد وظيفة بسبب اضمحلال بعض الصناعات التى قد كانت لآبائك وأجدادك ، وفرص العمل والاضمحلال الصناعى ربما هو نتيجة لفقد السوق فلم يعد هناك مستعمرات تشترى الفائض ، أو لأن هناك دول أخرى تنتجها بأسعار أرخص . وفى الحالة الثانية ، وفى حالة نزول المطر الغزير فإن له أثره الملموس على أرض عائلتك التى كانت ترعى فيها طول العمر والتى قد فقدت . وربما تجد إحدى الشركات الأجنبية

قد أجرت جزءاً من الحكومة وخاصة الجزء الذى كان يترك فى أوقات السيول الشديدة . أما الشيء المشترك بين الموقفين هو أنك مضطر لاتخاذ القرار وتواجه المشاكل ليس لأنك تختارها إلا أنك مضطر لمواجهتها .

الإحساس بالعالم :

كيف يستطيع علم اجتماع التنمية أن يساعدنا بمثل هذا الموقف ؟ ويحاول علم الاجتماع بكثير من الطرق أن يجعلنا نحس "بالبعيدين" أو "الآخرين" والتى كلنا نحسها عندما لا نستطيع عمل شيء نريده ، ولا نستطيع عمله كأفراد ، لأن هناك قواعد ((قانونية مكتوبة وتنفذ عن طريق القضاء والأخلاق ، والمعتقدات وما هو بديهى فى حد ذاته للسلوك وتمدنا بالمعتقدات فى أفعال غير إنسانية)) والتى تمنعنا وتحدد سلوكنا .

وقد وصف علم الاجتماع من أحد رواده الأوائل " إميل دوركايم " "Emile Durkheim" على أنه الدراسة الخاصة "بالحقائق الاجتماعية" ، (أنظر اطار ١ – ١) .

اطار ١ – ١ . الحقائق الاجتماعية

... هناك مجموعة من الظواهر ربما تكون مختلفة عن تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبيعية . عندما أقوم باداء واجباتى كأخ أو زوج أو مواطن عندما أنفذ عقودى ، فإننى أقوم بواجبات يوضحها القانون والعادات . حتى إذا ما اتفقت مع عاطفتى فإننى أحس بموضوعيتها وقربها لى ، ومثل هذه الحقيقة تعنى الإيجابية لأننى لم أخلقهم ، ولكننى ورثتها فقط عن طريق التعليم . . . هنا ، ونجد فئة من الحقائق لها خواصها : وتتكون عن طريقة العمل والتفكير والاحساس الخارج عن الفرد ، ولها قوة الإجبار عن طريق العقل والتى بها يمكن السيطرة عليه .

(Durkheim, E., The Rules of Sociological Method, The Free Press, New York, 1964 pp. 1-3, first publishedin French in 1893, in English. 1933.)

وما كان يحاول دوركاييم إيضاحه هو دراسة الآخرين فى المجتمع ودورها فى تحديد رغبات وطموحات الفرد . فهو يتساءل عما يوفره المجتمع من درجات النظام والاعتيادية والاتفاق على قواعد معينة للسلوك . وعلى وجه الخصوص ، كان مهتما بكيفية نشأة أخلاقيات

المجتمع خلال مجموعة عظيمة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وكانت مقدمة هذا الفصل عن العامل المهاجر . لأنه عبر التاريخ مثل هؤلاء الناس كانوا ينتقلون من أماكنهم المألوفة إلى المجهولة بحثا عن الحياة الجديدة بما تشمله من قوانين جديدة . فكان على هؤلاء المهاجرين أن يجدوا حلولاً لمشاكل النظام والأخلاقيات ، نتيجة لوجود المتغيرات التى تؤثر على حياتهم . هذه التغيرات شملت تجارة العبيد (نوع كريه من أشكال العمالة المهاجرة) ، وما شهدته مرتفعات شمال اسكتلندا فى القرن ١٨ (أنظر إطار ١ - ٢) وهجرة الناس من جنوب أوروبا للعمل فى ألمانيا أو العمال المهرة فى انجلترا الذين يغادرونها خوفاً من البطالة إلى دول الخليج .

اطار ١ - ٢ الاراضى المرتفعة

منذ بداية عام ١٧٧٥ عانى صغار المزارعين فى المرتفعات الاسكتلندية لأن أراضيهم قد خصصت للرعى . ورفع الانجليز وملاك الأرض الإيجارات ، ولذا بدأت هجرة كبيرة إلى أمريكا الشمالية . وعلى سبيل المثال ماكتب عن اسكتلندا الجديدة بكندا عام ١٨٠٧ فى وصف هؤلاء المهاجرين "كان على كل من يقيم على قطعة أرض فى ناحية ما دفع إيجار ... والتى ... كانت تكفيهم بالكاد... ولذلك شدوا العزم ورحلوا إلى امريكا الشمالية ومعهم زوجاتهم الحوامل والاطفال سيراً علىً الأقدام فى سبيل الاستقرار فى عالم جديد"

Richards, E., A History of the Highland Clearances, Croom Helm, 1983, p. 203.)

لقد استخدمت صورة العامل المهاجر لكى نقيم حلقة اتصال بين الماضى والحاضر ، بمعنى اننا نربط حقبة معينة من الزمن هى اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عندما كانت هناك حركات هائلة من الهجرة ، وخاصة بين الدول الأوربية . وكان ذلك نتيجة التغيرات الجذرية فى تنظيم كل من المنتجات الزراعية والصناعية . إنها فترة التغيير الجذرى ، لانتشار الرأسمالية لتصبح النسق الاقتصادى السائد ، والتى أوجدت فرصة لهجرة العمال من مناطق ريفية إلى أخرى ، ومن الريف إلى المدينة ، وإلى نمو المدن (أنظر إطار ١ - ٣) . وقد أدت أيضا إلى تنمية علم الاجتماع كمجال للدراسة وكمحاولة لدراسة الفوضى - فهو العلم الذى قد أتى من خلال هذا النظام فى هذا التغير المفاجئ وفى عالم مضطرب ، والذى أراد أن

يوجد نوعاً من النظام والاستقرار فى هذا العالم المتغير والمضطرب .

إطار ١ – ٣

الحركة العمالية فى انجلترا

إن ما كتب عن الريف الإنجليزى عام ١٧٩٥ يلاحظ منه الآتى : إن المزارع الكبيرة القائمة على جهود الفلاحين خاصة المحرومين ، قد أسهمت فى زيادة عدد الفقراء المتواكلين . فكثير من ملاك الأرض كان عليهم أن يواجهوا الزيادة المستمرة فى أعباء المعيشة فاضطروا إلى رفع الايجار إلى درجة كبيرة ، وتفادى الاصلاحات . كما استطاع كبار الملاك شراء كثير من المزارع وتحصيل أرباح كثيرة ، وبذا حققوا كثيراً من الأرباح ، فنجد أن من كانوا ملاكاً لقطع صغيرة من الأرض قد تحولوا إلى أجراء . وفى بعض الأحيان لا يستطيعون العمل فيلجأون إلى الكنيسة ، ومن ثم فقد زادت العائلات الفقيرة .

(Rev. Davies, D., The Case of the Labourers in Husbandry, 1975, quoted in Cole, G. D. H. and Filson, A. W., The British Working Class Move ments: Selected Documents 1789 - 1875, st. Martin's press, New York, 1967, p. 3 .

وهذا يوضح تأثير الثورة الصناعية والزراعية . فالتكنولوجيا الحديثة تعنى قلة استخدام العمال فى الإنتاج الزراعى واكثر من ذلك فى الصناعة ، وهكذا اصبح هناك فائض فى العمال الزراعيين ، وبدأت عمليات الهجرة العمالية . العمال الذين يقطنون بجوار المصانع يذهبون اليها للعمل . وهكذا أعيد توزيع العمالة داخل الريف . ولكن العملية أخذت وقتا ، وغالبا وجدت جيوب بها فائض من العمال . وهؤلاء الناس كانت تمدهم بالعون الكنيسة المحلية .

وهناك عملية مماثلة اليوم لانتقال العمال من المناطق الريفية إلى الأماكن الحضرية فى أقطار أفريقيا ، وآسيا ودول أمريكا اللاتينية .

إن جذور علم الاجتماع تقوم على محاولة فهم التغير . وعلى ذلك فإن علم اجتماع التنمية أحاط بكل علم الاجتماع . والسؤال : ماذا تعنى "التنمية" ؟ ماتعنيه التنمية سوف يظهر من خلال هذا الكتاب ومع سؤال آخر وهو : لماذا اخترنا استخدام كلمة "التنمية" بينما الكلمات

الأخرى مثل كلمة "تغير" * تبدو كافية ؟ إن (اطار ١ - ٤) ربما يكشف بعض معانى كلمة "تنمية" . وسوف نجدها أكثر تفصيلا فى الفصل التاسع .

اطار ١ - ٤ ماذا نعنيه بالتنمية ؟ : ** .

فى محاولة للإجابة على هذا السؤال ، سوف أتحدث من خلال ثلاثة معانى أو تعريفات وثلاث مشاكل ، هى :

التنمية من الداخل : هذا الرأى يقول أن أى شىء ، نبات أو حيوان أو مجتمع ، فى داخله رغبة لتغيير شكله . وعندما نتحدث عن المجتمعات بهذه الطريقة ، فإننا نفترض الإمكانات ونتائج التغير نتيجة عمليات داخل المجتمع .

التنمية كتفاعل : هذا الرأى يرى أن التنمية ناتجة عن تفاعل أى شىء مع بيئته . وهكذا نجد أن الحيوان أو المجتمع يتغير نتيجة لعدة صفات كامنة داخل الشىء نفسه ولوجود الفرص والمصادر المتاحة فى البيئة .

التنمية عملية متداخلة : وهذا الرأى لا يرى فرقا واضحا بين الأشياء وبيئتها . وعلى سبيل المثال :

---

* هناك إنتقادات وجهت إلى كثير من النظريات السسيولوچية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر ، تجاه بعض المفاهيم وما بها من خلط شديد كمفهوم التغير والتطور والنمو والتقدم ففكرة النموغالباً ما تختلط مع فكرة التطور ، ومفهوم التطور يتداخل مع مفهوم التقدم ، وكذلك يستخدم البعض مفهوم التغير للإشارة الى كل الاختلافات التاريخية ... [المترجمة] .

* لقد بذلت محاولات عديدة لتحديد معنى هذا المفهوم ... فمن هذه التعريفات ما يؤكد على استخدام التكنولوجيا والتحديث . وأنها عملية معقدة شاملة تضم جوانب اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وايدولوجية ... كما تعرف التنمية على أنها عملية تستند إلى الاستغلال الرشيد للموارد بهدف إقامة مجتمع حديث يتميز بتطبيق التكنولوجيا والتساند الاجتماعى الواسع النطاق ، والتحضر ، والتعليم ، والحراك الاجتماعى ، إذن فهى تفترض توافر الدينامية ، والتغير ، والتصنيع ، والاستقلال والتأثير ... إلخ .
ومن التعريفات من يركز على البعد الثقافى الاجتماعى ... ويرجع إختلاف هذه التعريفات إلى اختلاف المنطلقات النظرية واتجاهات التنمية سواء أكان اتجاه مادى - والذى أسس دعائمه ماركس - أو اتجاه مثالى - والذى أرسى أسسه ڤيبر - ... ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى الدراسات القيمة فى هذا الموضوع ومنها :
- محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف ، ط ١ ١٩٧٨ .
- السيد الحسينى : التنمية والتخلف ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، الكتاب الثامن والثلاثون ، مطابع سجل العرب ، ط ١ ، ١٩٨٠ .... [المترجمة] .

المجتمع المصرى والغالبية فيه مسلمة والبيئة المجاورة هناك وتشمل بيئات إسلامية كثيرة ، والافكار والاهتمامات تؤثر فى الناس المقيمين فى مصر .

ثلاث مناطق للمشاكل :

كل من معانى التنمية يمكن أن يطبق على عديد من المشاكل التى تعتمد على ما نقرره أو نراه فى بؤرة الضوء . وعلى سبيل المثال ، إننا يمكن أن نهتم بتنمية الأسرة وفى ضوء الثلاثة أفكار التى سبق ذكرها . ودائما وعادة فى علم اجتماع التنمية نجده يهتم بعمليات التنمية ، إما على مستوى واحد أو على الثلاث مستويات التالية : الاجتماعى والثقافى والسياسى .

وهذا المدخل يمدنا بجدول دقيق يوضح الثلاث مشاكل التى يمكن تحليلها بثلاث طرق . ويمكنك الاطلاع على هذا الجدول التالى :

التنميـــــة

	من الداخل	التفاعل	التداخل
الاجتماعى	١	٢	٣
الثقافـــى	٤	٥	٦
السياســى	٧	٨	٩

حاول ماكس فيبر "Max Weber" أن يفهم بعض مسببات ونتائج مشكلة هجرة العمالة من ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر ، حيث ظهر نوع من "التنمية" أو أخذت التنمية مجالها فى أوربا (أنظر إطار ١ – ٥) .

إطار ١ – ٥ رأى فيبر عن هجرة العمالة :

أكد فيبر أن الرأسمالية * هى السبب فى انتقال العمال من ألمانيا الشرقية وأشار إلى الاستخدام الدائم للنساء كعاملات ، ووجود ما يشبه السكنات للعمال ، يعيشون فيها هم

* لقد اهتم ماركس وفيبر بنشأة النظام الرأسمالى بوصفه أسلوبا للتنمية ، ولقد نظر ماركس إلى التنمية الرأسمالية أو "التحديث" بوصفها عملية بدأت فى أوربا ثم بدأت تسود العالم كله ، حيث انتشار الثقافة =

والأجراء مع وجود عجز فى المرتبات وعدم وجود البديل على شكل إقامة الحدائق أو تربية قليل من رؤوس الماشية . ومن خلال البروليتاريا . نجد أن كثيراً من العمال الريفيين قد أصابهم الضرر بسبب لجوء كثير من أصحاب رأس المال إلى استخدام المهاجرين البولنديين والروسيين وهذا التفضيل يرجع إلى وجود العمالة الأجنبية ورغبتها فى العمل وموافقتها على أجور قليلة ، لأن إنتاجها أيضا كان اقل من إنتاجية العمالة الألمانية ، ولكن العمال الروس والبولنديين كانوا مطيعين وذلك بسبب حالتهم الاجتماعية . وإذا ما نظرنا إليهم نجدهم عمالاً موسميين حيث يمكن إرجاعهم عبر الحدود إلى بلادهم مخففين العبء المالى والالتزامات الإدارية عمن يوظفونهم . ولكن العمال الألمان أنفسهم كانوا أكثر طلباً من المهاجرين بالنسبة للتغذية وظروف العمل وبسبب طلباتهم ذات المستوى العالى خسروا فى المنافسة مع البولنديين والروس .

(Bendix, R., Max Webwr : an intellectual portrait, Methuen, 1962, pp. 19 - 20.)

علم الاجتماع نظرة تاريخية بيوجرافية :

يوصف علم الاجتماع على أنه العلم الذى يهتم جزئيا بالسير الذاتية والتاريخ . هذه فكرة هامة ، لأنها توجه اهتمامنا إلى مظهرين من دراستنا . أحدهما هو العلاقة المرتبطة بالأنظمة المختلفة ، والتى تبدو على أنها منفصلة . وفى الواقع فإن علم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا ، والاقتصاد ، والاقتصاد التاريخى ، والتاريخ والجغرافيا ، هى كلها علوم منفصلة ، وكلما استمريت فى القراءة فسوف تكتشف أن هذا الانفصال يعد عائقا للفكر ، ونعتقد أنها مشكلة لها جوانب عديدة ، فنحن نحرم نتيجة لهذا الانفصال من كثير من الأفكار

= البرجوازية ، واعتبر ماركس الرأسمالية نتيجة من نتائج التقدم التكنولوجى والتوسع الصناعى مما دفع البرجوازية إلى تبنى نمط الانتاج الرأسمالى والتوسع فيه . ثم ظهور نمط السوق الدولى ، والتحضر وهجرة العمالة وخضوع الريف لتحضر ... إلخ ولقد تبنى كل من ماركس وڤيبر إتجاها واحدا وهو اتجاه تاريخى - بنائيه . إلا أنهما انطلقا من وجهة نظر متعارضتين فى تفسير نشأة هذا النظام - النظام الرأسمالى - فبينما درس ڤيبر العلاقة بين الدين والاقتصاد أى العلاقة بين الأفكار الدينية من ناحية ، والاتجاه نحو النشاط الاقتصادى من ناحية أخرى ، بفرض فهم المظاهر الأساسية للنظام الاجتماعي والاقتصادى للغرب . أما ماركس فقد نظر الى نشأة النظام الرأسمالى من خلال النظام الاقطاعى (التقليدى) وظهور المشروعات الرأسمالية وما ينتج من ذلك من آثار على المجتمع والوعى الانسانى ، وتفكك المجتمع الاقطاعى ...

- الحسينى : التنمية التخلف ، مرجع سابق ، ص . ص ٢٩ - ٤١ .... [المترجمة] .

والمعلومات التى يمكن أن تساعدنا فى فهم المشكلة التى نبحثها . وعلى سبيل المثال : إذا كنا نبحث فى التساؤل : لماذا تحدث الهجرة العمالية ؟ فسنجد أنفسنا أننا نحصل على إجابة جزئية إذا ما نظرنا أو بحثنا فقط فى الأسباب الحالية كالبطالة . لكننا نجد إجابات أكثر إقناعاً لهذا السؤال إذا ما فحصنا وبحثنا فى التاريخ الاقتصادى لمنطقة معينة ، لكى نفهم سبب وجود بطالة هناك ، سواء كانت بطالة طويلة المدى أو قصيرة المدى .

علم اجتماع التنمية :

إن هذه المناقشة تبدو أنها أتت من بعيد عن طريق علم اجتماع التنمية ، ولكننا نبحثها من خلال هذه الأنواع من الأسئلة التى يهتم بها علم الاجتماع ، وخاصة مداخل التنمية الاجتماعية فهى تهتم بطرح السؤال عن كيفية حدوث التغير الاجتماعى ، وما نقصده بالتغير الاجتماعى وكيف يؤثر فى الأفراد والمجتمعات ، وأخيرا كيف يتأثر به العالم «كنسق اجتماعى» .

علم الاجتماع والتنمية والتطور :

هناك خطوط متوازية بين العمالة المهاجرة فى أفريقيا المعاصرة والقرن التاسع عشر فى أوربا ، ولكن لا يمكن القول بأن كليهما عنده نفس الأسباب أو التأثيرات ، ولكنها تظهر أن بعض الخبرات الإنسانية لعمليات الهجرة يمكن أن تكون متشابهة . ولكننا نجد فى التغير الجذرى الحادث فى أوربا فى بداية القرن التاسع عشر بداية ظهور علم الاجتماع وبالتالى نجد جذورا لعلم اجتماع التنمية ، كما نجد حالات متشابهة . فهناك أفكار ونظريات وتحيزات وآراء من مفكرى القرن التاسع عشر ومازال تأثيرها موجوداً علينا ، وتؤثر فى الطريقة التى نفكر بها فى مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية . على سبيل المثال فإن بعض الناس يتحدثون عن تطور المجتمع فى دول العالم الثالث * . إن كلمة التطور كلمة مفضلة فى القرن التاسع عشر ،

* هناك تحفظ يجب أن يؤخذ على مفهوم الدول النامية فهو لا يصف مجتمعات أو دول متشابهة فهناك تفاوت فى التاريخ بين هذه الدول بالرغم من أنها جميعا تشترك فى تاريخ واحد وهو خضوعها للاستعمار ، كما أنها تحررت وحصلت على استقلالها فى فترة تاريخية واحدة تقريبا ولكن لم تسلك كلها مسلكاً واحداً فى بناء مستقبلها فمنها من سلك الطريق الاشتراكى ومنها من تبنى النظام الرأسمالى ومنها من لم يحدد هويته حتى الآن ... إلخ . كما أنها تختلف فى مواردها سواء كانت اقتصادية أو بشرية أو تكنولوجية . كما أنها تختلف فى مستوى التطور الاجتماعى ، والثقافى ولذلك كان لابد وأن تختلف أساليب وتصورات التنمية تبعا لهذا الاختلاف وكان لابد من دراسة تجارب التنمية المختلفة بحيث يختار من التجارب ما يوائم ظروف كل مجتمع على حدة [المترجمة] .

ثم تغيرت حديثا وأخذت إسم نظرية التطور التى يقصد بها أشياء كثيرة من الحياة السياسية من خلال تنمية الأسرة ، وكذلك نفكر أيضا فى استخدام المصطلحات الحديثة والتقليدية عندما نطبقهما على التنظيمات الاجتماعية وطريقة السلوك فى المجتمع ، أليس ذلك استخدام مقنع لفكرة التطور فى الواقع ؟ إن الفكر الغربى الإجتماعى والحياة الغربية بالرغم من اهتماماتها بما يعد حديثاً أو جديداً نجد أن الإنسان يتأثر بأفكار القرن التاسع عشر . إن ذلك لا يدهشنا كثيراً ، لأن العالم الذى نعيش فيه والمعروف بسرعة اتصالاته على نطاق واسع ، ووجود كثير من المنظمات ، والتجارة الدولية والأعمال البنكية الدولية ، والتغير التكنولوجى السريع ، خلق فى خلال الـ ١٥٠ سنة الماضية إحساس عام بذلك .

ولذلك لابد أن نحس بضرورة فحص علم اجتماع التنمية ، ونضع فى عقولنا فكرة واضحة لما كان يفكر فيه علماء الاجتماع الأوائل ، وما كانوا يرغبون فى قوله . ومن المفيد أن نحاول معرفة معني كلمة نظرية لأننا سوف نتكلم بعد ذلك عن النظرية الاجتماعية .

وهناك نقطة هامة تلاحظها عن أى نظرية ، وهى أنها تضع جدولا للمناقشة والبحث ، وهى دائماً تعرض ما هو مناسب وغير مناسب ، ومن ثم فالأسئلة التى تطرح دائماً تعتمد على النظريات التى نبدأ بها ، فالإطار ١ - ٤ يبين أن هناك معانى مختلفة ومستويات فى الطريقة عندما نستخدم كلمة تنمية . وكل نظرية من تلك النظريات هى نظرية مختلفة .

إطار ١ - ٦ : النظرية :

النظرية فى حديثنا اليومى نجد أنها تتخذ شكلا دقيقا وفى العلوم دائما تطرح كثيراً من الأسئلة بطرق خاصة تحلل معانى الكلمه بطرق معينة أو تشمل بعض الاحتمالات وتستبعد الأخرى . وهناك دائما من يقول إن النظرية ليست دائما حقيقية ، وينظر إليها على أنها شكل معين من اللغة والتى تمثل اسكتشاف تحدد لنا الكلمات التى نستخدمها لمناقشة مشكلة ما معينة وطرق البحث أو الطرق التى يمكن اختبارها ، واللغة التى تصفها نختبرها عن طريق التجربة . ويمكننا التساؤل عما إذا كانت اللغة الإنجلزية والروسية أو السواحيلى حقيقة أم لا ، ولذلك نجد أنها مترادفة للسؤال الآتى : هل هناك نظرية لغوية نستخدمها فى علم الاجتماع أو فى أى مكان أو مجال للدراسة ؟ ولكن السؤال يتم إذا ما كانت كافية لأداء الوظيفة المطلوبة منها . إن اللغة الإنجليزية ليست جيدة فى وصف

الحياة العالمية ، وعلى سبيل المثال : لا تستطيع اللغة الإنجليزية وصف شعب «الكنجـا» * فى جنوب إفريقيـا ، لأنهـا لم تـخلق لكى تؤدى مـثل هـذه الوظيـفة . ويشـابه ذلك ، اللغـة النظرية (Theoretical Language) التى يقـوم بها علمـاء الاجتمـاع الوظيفيين ، حيث يجدون صعوبة فى وصف المجتمع الذى يمر بالتغير السريع ، أو إيجاد إحساس بالمجتمع . وفى هذه الحالة تصبح اللغة الإنجليزية ولغة الوظيفيين غير كافية لهذه الأهداف . وحينئذ تصبح المشكلة أكثر تعقيدا ولكنها موضع اهتمام فى العلوم الإجتماعية ، لأن النظرية الاجتماعية من نتاج أعمال الناس وأفكارهم معا ، فهى تعكس الخبرات والآراء الخاصة لهؤلاء الذين قد انتجوا هذه النظريات ، وهى تعضد دائما المعتقدات التى هى نتاج الجماعة أو الجماعات من رؤيتهم للمجتمع وكيفية عمله . ويمكننا القول بأنها تضفى شرعية على مراكزهم ، كما قال عالم الاجتماع «كارل مانهايم» لتصبح «أيدولوجية» و«نظرية» . إن ما ينتقل من النظرية إلى «الأيدولوجية» وقع فى كل العلوم وليس فقط فى علم الاجتماع (تذكر جاليليو) وهناك رغبة دائمة فى الوقوع لأول وهلة بأنه شىء حقيقى ونوافق على أنه ذو قيمة ، أو شىء لا نتفق عليه إطلاقا ولا نعرف حقيقته النهائية . وإذا أردت أن تقرأ شيئا من هذه المشاكل يمكنك أن ترجع إلى :

G. Rose, Deciphering Sociological Research, Macmillan, London, 1979.

تدعونا نظرية التطور إلى النظر للعالم بطريقة معينة ، ونسأل أسئلة بعينها وليست أسئلة أخرى . وعلى سبيل المثال : هناك نظرية للتنمية السياسية خاصة بالمدخل التطورى ، وهذه النظرية تقول إن المجتمعات تمر من خلال العديد من المراحل ، وتبدأ بحكم الفرد الذى يأمر الجميع ، ويحدد لهم ما يجب أن يعملوه . ثم تنتقل إلى فترة متوسطة أو مرحلة متوسطة إلى نسق يوجد به شكل ما من البرلمانات والديموقراطية مثل ما يوجد فى أوربا الغربية . ويمكننا فهم هذا النوع من التعاقب التنموى والتتالى التاريخى التطورى ، فهى فى الواقع عبارة عن حكم يتخذ ويوضع عن تنمية القيادات السياسية فى أجزاء كثيرة من بلاد العالم . وعلى سبيل المثال : فى أوربا الغربية وشمال أمريكا نعتقد أن نسقنا نسق ديموقراطى ، وهو الأفضل ، وأن

* انظر شرحاً فى إطار ٨ – ٤ .

هذا النوع من الديموقراطية هو نهاية ما أنتجته عمليات طويلة من التطور ... ومع ذلك ففى كثير من أرجاء أفريقيا يعتقد الناس أن نسقنا ضد الفقير ، وأن نظام الحزب الواحد للدولة هو أكثر ديموقراطية ، لأنه يضمن أن الفقير سيمثل بطريقة كافية .

علماء الاجتماع الأوائل :

لقد نظرنا نظرة قصيرة أو مختصرة إلى النظرية وطبيعة علم اجتماع التنمية . ويمكننا الآن أن نتفحص الجذور العلمية للموضوع ونموها حتى الآن . وينبغى أن نتذكر دائما أن النظرية التى بدأنا نقاشها قد نشأت خلال قرن آخر ، وهناك استمرار لكل من طابع أو أسلوب النظرية والمشاكل التى من المفروض أن تفسرها النظرية .

إن المائة عام من عام ١٧٥٠ - ١٨٥٠ كانت عبارة عن حقبة ضخمة للتغير فى أوربا الغربية - تغير فى طرق حياة الناس وطرق تفكيرهم ، والتغير الهام بالنسبة لنا هو طرق تفكيرهم عن كيفية حياتهم أو كل الحقائق عن الصواب والخطأ ، والأخلاقيات وغير الأخلاقيات ، أو الصدق أو الكذب وكانت تتغير كما كان التغير فى الإنتاج الزراعى أو الدورة الزراعية التى حدثت على نطاق كبير والتى تركزت فى المدن والمصانع مستخدمة العمال المأجورة . فنجد أن المؤرخ الفرنسى «فيلمان برجواى» يعبر عن طعم هذه التغيرات فى الفقرة الآتية : فيقول إن تغير وجه المدن كمدينة لندن وباريس قد انعكس فى طريقة الحياة وشكل الحياة للآخرين ، فكان عالم النظام القديم ريفياً إلى حد كبير ، وهذا الانتقال كان انتقالا بطيئا وأحيانا ينهار ويقضى عليه تماما .

(Brandel, F., The Structure of Everyday life, William Collins & sons, 1981)

وينبغى أن نلاحظ شيئين فى هذه الفقرة .

أولا : يتحدث «برودل» عن أوربا الغربية بأنها مركز التغيرات ، وأن هناك تغيرات أخرى بدأت تؤثر وكانت تحدث فى نفس الوقت فى العالم ككل . ولذلك نجد أن برودل يستخدم المصطلح غير العادى «فن الحياة» . ونجد شيئا غير عاد فى هذا المصطلح قد يلفت نظرك ، وهو

أن النسيج أو البناء للحياة اليومية قد بدأ يتغير ، وبكلمة أخرى نجد أن المجتمع ليس وحده يتغير ، إلا أن الإحساس بمثل هذا التغير قد يقع على الأفراد أنفسهم . وعندما تزور مكانا جديدا أو ربما بلداً جديداً أو جزءاً غير مألوف لا يشابه وطنك فإنك تشعر بالغربة . تخيل هذا الشعور يكبر عدة مرات أو مئات المرات ، فإنك تحصل على بعض أفكار عن ما يجب أن تكون عليه الحياة لكثير من الناس خلال هذه الفترة .

وهناك مجموعات مختلفة في المجتمع تمر بمثل هذا الشعور وهذه الخبرة ، بل وتتجاوب معه بطرق مختلفة ، وتتأثر به هذه المجموعات جذريا - مثل الناس الذين طردوا من أراضيهم بتغير الانتاج الزراعي ، ولإنتاج وإحلال الآلة ، والدورة الزراعية ، والجديد ، والتركيز الأكبر على ملكية الأراضي -نجد هؤلاء الناس قد مروا بتجربة مشابهة للعمالة المهاجرة ، وكان رد الفعل عندهم مختلفا في مواجهة التغيرات وذلك عن طريق الثورات والتمرد بطرق مختلفة أو بتكوين هيئات تقدم مساعدة لمختلف المدن وبكلمات أخرى لخلق عالم جديد أو فن جديد للحياة . هؤلاء هم أقل تأثيرا لأنهم لا يحاولون الكفاح لكي يعيشوا ولكنهم دائمو التفكير في التغير ، يحاولون التفكير دائما وليست محاولة إيجاد نوع من العمل أو الحياة العملية ، ولذا فهم ينتجون النظريات .

أوجست كونت :

إن الارستقراطي الفرنسي «سان سيمون» (١٧٦٠ - ١٨٢٥) ومن تبعه ، وتلميذه أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) يعدون كعلماء اجتماع التنمية الأصليين ، وهذه حقيقة الأخير بوجه الخصوص . وتفسر نظرية كونت نوعين من الأفكار ، والتي كان لها تأثيراً في عصره ، والتي ظهرت (في أشكال مختلفة) في عصرنا . وهذه أفكار التغير المرتبطة بالتقدم من خلال تطوير العقل البشري ، وعلى وجه الخصوص التطور في الأفكار العلمية (أنظر إطار ١ - ٧) .

إطار ١ - ٧ كونت ومحاولة لإعادة تنظيم المجتمع :

نتيجة للتقدم العلمي ، اعتقد كونت في أمكانية الوصول إلى المجتمع المتجانس المنسجم ، وذلك عن طريق السياسة العلمية الاجتماعية . فكتب : قبل أن تأتي العلوم الوضعية لأوربا الخاصة أو العامة ، سواء كانت علوما دينية أو ميتافيزيقية ... إننا نجد أن العلوم الطبيعية

قامت «أكثر فأكثر» على الملاحظة والتجربة ... إن العلوم قد نجحت وأصبحت أكثر إيجابية ، لأنها ترتبط بالإنسان . وعلى ذلك فقد أصبح علم الفلك أولا ثم الطبيعة وأخيرا الكيمياء جميعها موجودة دائما فى حياتنا اليومية . والتأثير الدينى والميتافيزيقى على مثل هذه الموضوعات ، قد دمر أو قضى عليه المتعلمين ...

إن تحقيق مثل هذه الظروف كان من شأنه أن يبعث على إيجاد نوع من التنمية الروحية التى تتناسب والنسق الاجتماعى الجديد ... (كونت وتقييم التاريخ الحديث
(Comte, A., Abrief Appraisal of Modern History

"وفى النهاية نجد أن الجميع يكونون نظرية إيجابية عملية فى السياسة ، واضحة فى الممارسة ، ويمكن أن تتعرف على نسقنا الاجتماعى ويؤدى إلى تناسق مع معرفة أو معلومات الدولة فى الحاضر . وبمتابعة انعكاس الفكر سوف نصل فى النهاية إلى النتائج التى يمكن صياغتها فى مفهوم فردى : إن رجال العلم فى عصرنا الحالى يجب أن يرتفعوا بالسياسة إلى مرتبة العلم والملاحظة ، أى أنه يرى أن رجل السياسة يرتقى إلى مستوى التفكير العلمى ، ولا سيما الجزء الخاص بالملاحظة .
(Comte, A., Plan for Reorganising Society) (Both of these entracts are in Fletcher, R., the Crisis of Industrial Civilisation, Heinemann Educational books, 1974. p.9 & p.134.)

اعتقد كونت أن العقل البشرى والمجتمع الإنسانى والمعرفة الإنسانية قد مروا من خلال عمليات التنمية الاجتماعية والتغير من نقطة ليست علمية ومن منطلق السلطة ، وما يسميه ، وراء الطبيعة . (المعنى قائم على العقيدة والإيمان ، أى المصادر غير الإنسانية) حتى وصلت إلى المعرفة العلمية العقلانية ، والتى أسماها (الوضعية) ، والتى يمكن تطبيقها فى كل كثير من المشكلات الاجتماعية .

وهكذا نجد أن فكرة الضبط العلمى أو على الأقل التوجيه العلمى ، تظهر مبكرا فى حياتنا الاجتماعية من خلال تطور أو نمو علم الاجتماع .

وفى الواقع اعتبر كونت أن علم الاجتماع هو (ملكة العلوم) مقدماً «الحقيقة» عن كيفية تنظيم المجتمع ، لكى يكون خاليا من الصراعات والاضطرابات ، والتى كانت واضحة

آنذاك ، والتى استمرت حتى الآن . (أنظر إطار ١ – ٨) .

إطار ١– ٨ المشاكل والألغاز Problems and Puzzles

إن المشاكل الاجتماعية تستحق قليلاً من التفكير لحلها ، كما لو كان المرء يحل مسابقات الكلمات المتقاطعة ، ليصل إلى حل واحد صحيح ، إنه من السهل أن نخلط معنى كلمتين ، ولكن فى الواقع يكونان مختلفين ، بالرغم من أننا نستخدمهما بالتبادل . وإنه لمن المفيد أكثر قولنا أن الإرتباكات والمتاهات تكون أشياء قد تعطينا الحل الصحيح أو الخطأ عند اتخاذها للحلول ، إلا أن المشاكل فى الواقع لا تعنى إعطاء حلول كالمسابقات ، فهى تحتاج إلى تفكير واستقرار ونتائج مرضية ، أكثر من أنها تكون صحيحة أو حقيقية . ومعظم الأشياء التى نهتم بها فى العلوم الاجتماعية هى مشاكل وليست مسابقات أو ألغاز لسبب بسيط ، وهو أن الجنس البشرى يرى الأشياء دائما من نقاط أو زوايا مختلفة ، أو حتى يعرف المشاكل بطريقة مختلفة ويصل إلى حلول ، أحيانا ما تكون مرضية أو غير مرضية . لاحظ أن «دوركايم» يرى أن علم الإجتماع لابد أن يدرس الظواهر دراسة «موضوعية» كأشياء خارجة عن ذاتنا(as external things) ، ويمكن هذا أن يكون مفيدا فى الأبحاث وفى الطرق المستخدمة . ولا يمكن أن تكون مفيدة كطريقة لمعرفة العالم الاجتماعى معرفة نهائية . (الحقائق الاجتماعية) ، ويراها الناس على أنها أشياء ولكن واقعها لا يمكن معرفته نهائيا ، ولا يمكن تعريفه من الخبرة الاجتماعية ، حيث أنها نتاج معيشة من خلال الضمير الإنسانى ، والضمير هو نتاج التفاعلات البيوجرافية والتاريخ ، والتى سبق إن لاحظناها . إن معاملة المشاكل الإجتماعية كمسابقات أو ألغاز أو اعتبارها «أشياء» بالنسبة للعالم غير مثيرة للنزاع ، ولذا نجده يقع فى مصيدة «اليوتوبيا» أو المثالية . إنها الحقيقة الاجتماعية التى تقول : إنه نوع من الكمال يؤدى إلى الكمال .

رأى كونت فى علم الاجتماع أنه يشتمل على صورة مضللة (انخداع) وأن من خلال الدراسات التطبيقية يمكن أن نصل إلى علم أفضل وأكثر تقدما وأن يؤدى إلى نوع من الانسجام أو التوافق الاجتماعى .

اليوتـــوبيا :

هذا الاتجـاه من المثـاليـة ، فى الفكرة الكاملة عن الوجـود الاجـتـمـاعى الخـالى من الصراعات ، وربما نجده فى النظريات الاجتماعية للتغير والتنمية . "كارل ماركس" و "فردريك إنجلز " فى محاولة لضرب هذا الاتجاه فى الفكر الاجتماعى والسياسى لعصره ، كتبا مقالة تسمى «الإشتراكية – العلمية والمثالية» وهى محاولة لاظهار الاختلافات بين العلوم الاجتماعية التى تحلل العالم بطريقة إيجابية وبين العلوم التى بدأت من رأى ما يجب أن يكون عليه العالم ، ثم بعد ذلك يوضح كيفية الحصول على ذلك . إنها مشكلة صعبة ، ولا نستطيع الهروب منها ، لأنه بعـد مـائة سنة هاجم «داهرندوف» نفس المشكلة بشكل آخر فى مقالة له بعنوان «نتاج اليوتوبيا» ، والتى انتقدت الوظيفية فى المصطلحات الآتية :

كل قادة أو مفكرى اليوتوبيا من بداية جمهورية "أفلاطون" إلى عالم "جورج أورويل" الجديد الشجاع سنة ١٩٨٤ نجد أن هناك عنصرا واحدا مشتركا . فهى كلها مجتمعات يغيب عنها التغير ، سواء إذا ما فهم على أنها دويلات منتهية وقمة التنمية التاريخية ، أو كحلم رومانسى عاطفى . إن نسيج اليوتوبيا لا يستطيع التعرف على تدفق العمليات التاريخية التى لا تنتهى .

(Dahrendorf, R., Out of Utopia, in his Essays in the Theory of Society, Roudedge and Kegan Paul, 1968 P.105.

إن هذا الرأى المهتم باليوتوبيا ، والذى يبدو كذلك (وإن يكن له أشكال مختلفة) لدى كل من علماء الاجتماع الأوائل مثل "كونت" والوظيفيين مثل "تالكوت بارسونز" فإنه يبدو لمن المفيد أن نفهم شيئا عن النظرية الاجتماعية نفسها ، والتى نمت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

سبنسر وتونيز ودوركايم :

خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت نظريات كثيرة ، حاولت أن تعطى معنى أو تفسيراً لعمليات التغير حولها . إن المشكلة التى خدعتهم هى الطريقة التى ظهر بها المجتمع على أنه أكثر تعقيداً مع وجود تخصصات عظيمة فى كل ما قام به الأفراد ، وما قامت

به الجماعات الأخرى من المجتمع . وهكذا نجد "هربرت سبنسر" (Herbert Spencer) (١٨٢٠ - ١٩٠٣) ليس فقط يقارن المجتمع على أنه تنظيم عضوى ، ولكنه يصر على أن (المجتمع هو تنظيم) - وهو عنوان الفصل الثانى من كتابه بعنوان (تطور المجتمع) (انظر إطار ١ -٩) لقد فهم "سبنسر" "Spencer" مصطلح التنمية على أنها تنمية من الداخل .

إطار ١ - ٩

سبنسر والتنمية والاختلافات

"اعتبر "سبنسر" (Spencer) أن المجتمعات والتنظيمات العضوية تتبع نفس قوانين النمو فقال : إنها ... خاصية الأجسام الاجتماعية أو المنظمات الاجتماعية ، وتشابه الأجسام الحية ، حيث أن الأجسام تنمو وتتزايد فى الحجم ، فهى تزداد فى البناء ، كما يحدث فى تكاثر الخلايا ، والجنين ذو المتسوى العالى له انقسامات قليلة معروفة ،وعندما تأخذ شكلا واضحا نجد أن أجزاءها تتكاثر وتتعدد وتختلف . وهكذا كما يحدث فى المجتمع . وفى البداية فإنها لا تتشابه مع مجموعاتها ، فهى غير واضحة فى العدد والدرجة ، ولكن بالنسبة للناس فهناك انقسامات فرعية تصبح متعددة وكثيرة العدد وأكثر وضوحا بالإضافة إلى ذلك فى التنظيم الإجتماعى كما فى تنظيم الفرد ، فأسباب الاختلافات تتوقف فقط عندما يكتمل النمط أو الطابع والتى تحدد النضج والتقدم والاضمحلال ... فالنمط الأدنى (lowest) من الحيوان نجده كله معدة ، وكله سطح متنفس ، وكله أطراف ... أى نفس الشىء فى المجتمع ... ففى المجتماعات البسيطة أو البدائية نجد جميعهم محاربين ، وصيادين ، وبنائى أكواخ ، وصانعى آلات ، وكل قسم يعمل لنفسه للحصول على احتياجاته ... إن التنظيم الاجتماعى ، وتنظيم الفرد كله متاشبه تقريبا . وفى الثدييات نجد أن الرئه تتسبب فى أن يقف القلب ... وإذا ما فشلت المعدة تماما ... فكل الأعضاء الأخرى ... تتوقف عن العمل أو الأداء ... وهناك اعتماد متبادل بين كل الأجزاء ، وهى خاصية ضرورية . وفى مجتمع نجد أن العمال فى الحديد يتوقفون إذا ما توقف عمال المناجم عن الإنتاج بالمنجم ، وكذلك صانعو الملابس يتوقفون إذا ما توقف صانعو الغزل والنسيج . ولذا نجد أنفسنا مضطرين للقول بأن الاعتماد متبادل بين كل الأجزاء"

(Spencer, E., The Evolution of Society, University of Chicago Press, Chicago and London, 1967 PP.3- 5) .

ويتبنى (فرديناند تونيز) ١٨٥٥ – ١٩٣٦ رأيا مماثلا عن التنمية كتنمية من الداخل ، حيث نجد أنه قد اهتم أساسا بالتغيرات فى الأخلاق والمبادىء على أنها أساس المجتمع ، والصفات التى تسود بين أعضاء المجتمع . كما كتب عن الانتقال التدريجى غير المستوى ، والذى لخصه فى مصطلحات تمثل نمطين لقطبين ، وسمى هذه الأنماط بالأنماط بالقطبية ، والتى لا تشابه الأنماط المثالية لـ ماكس فيبر" الذى سماها الجيماينشافت والجيزلشافت (Gemeinschaft and Gesellschaft) *. وهذه الكلمات لا يمكن ترجمتها مباشرة إلى الإنجليزية ، ولكنها تستخدم بمعنى المجتمع «المحلى» والثانية «التعاقدى» هذا الانقسام يعطينا نمطين مختلفين ويجذب الإنتباه إلى فكرة كانت موجودة فى الماضى فى بعض أجزاء أوربا وأماكن أخرى فيما وراء أوربا ، والمجتمع كان وما زال منظما فى ضوء مصطلحات مترابطة . وهناك علاقات متداخلة مباشرة وشخصية ومشتركة فى كثير من العقائد . وكل فرد يعرف ماذا يحدث ، فيرى جيرانه دائما يتبادلون معه الأفكار ويتخذون معه القرارات ، وقد لايتفق معهم . وإذا لم يعرف الناس بعضهم البعض ، فإن القيم العريضة والاتجاهات تجمعهم ، وعلى النقيض فإن المجتمع التعاقدى مجتمع معقد ، ويتواجد فيه كثير من الوسطاء بين الأفراد والمجتمع الذى ينتمون إليه ، هذا التعقيد فى العلاقات يسمح بنمو الفوارق بين الأفراد .

إميل دوركايم "Emile Durkheim" (١٨٥٨ – ١٩١٧) يعالج دوركايم نفس المشكلة وبطريقة مشابه ، ويتكلم عن نمطين للتضامن الاجتماعى ، ويعنى بكلمة التضامن : المعتقدات الأخلاقية والأفكار التى تكون الإحساس الذى يسود فى الحياة الاجتماعية ، والتضامن

* مصطلح "الجماعة المحلية gemeinschaft" يستخدم ليصف جماعة أو نسقا محليا ، هذه الجماعة تسيطر عليها الإرادة الطبيعية والتى تقوم فى التجمعات التى تتميز علاقاتها بالتلقائية والعاطفية وتقوم على التفاعل بين المراكز والأدوار ، ويشير تونيز فى مصطلحه هذا الى نموذج مثالى للبناء الاجتماعى وإلى توجيه قيمى بحيث يتعذر أن نجده متحققا بصورة واقعية ، كما استخدم تونيز عند استخدامه لهذا المصطلح المصطلح المقابل له وهو المجتمع gesellshaft وهو يسيطر عليه الإرادة العقلية – أى المجتمع – وإن العلاقات الاجتماعية به أصبحت وسائل لغايات معينة تتميز بدرجة عالية من الموضوع وتستخدم لتحقيق أعلى مستويات الكفاءة . ولقد تأثر تونيز بأعمال "هنرى مين" وبخاصة مفهومية عن المكانة والتعاقد . على أن فهم المصطلحين عند تونيز يعتمد على فهمنا لمفهوم الإرادة عنده ، فيقول "هيبرل" إن العلاقات الاجتماعية عند تونيز تعبر عن الإرادة ، وتشتمل هذه الارادة على عناصر هامة فى الحياة الاجتماعية مثل القيم ، والمعايير ، والغايات ، والمعتقدات ، فضلا عن أسس التدرج الاجتماعى . ويرى تونيز أن موضوعى الجماعة المحلية والمجتمع لا يشيران فقط إلى ظاهرة المجتمع الإنسانى بل إنهما يعكسان مراحل تطورية للنمو ، فالمجتمع ينبثق حينما ينفصل الاشخاص ، وتتحرر الخدمات من إطار الجماعة المحلية ، خاصة بعد أن تباع وتشترى السلع فى الأسواق .

– محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٧ .

الميكانيكى (خاصية للمجتمعات ماقبل الصناعة) ويقال إنها قائمة على الاتفاق الشخصى بين الناس ، والتضامن العضوى مستمد من القدرة على تحمل الخلافات ، والصراعات ، والتى يمكن تخفيفها من خلال مجموعة من التنظيمات ، كما فى المحاكم واتحادات التجار والأحزاب السياسية . وفى مجتمعات ما قبل الصناعة يوجد القليل ، أو لا يوجد انقسامات فى العمل فالكل يعمل بطريقة مشابهة ويستهلك بنفس الطريقة ، فلا يوجد هناك اختلافات إلا القليل فى الرأى أو الشخصية الفردية . ولذلك "دوركايم" يقول : (كلما كان المجتمع بدائيا كان هناك تشابه وتوازن بين أفراده أو أعضائه) (Durkheim, E., 1965 p. 133) واستمر فى وجهة النظر هذه إلى أن وصل إلى النقيض حينما كتب أن بين البربر يوجد نوع من الوجوه الغريبة عن بقية أفراد القبيلة ، وهى وجوه قليلة وشاذة . (Durkheim, E., 1967, p.133.) ويمكننا أن نلقى نظرة عريضة فى تطبيق هذا الرأى ، إلا أنه ينبغى لنا فى البداية محاولة فهم المجتمعات الأخرى ، وما يمكن أن تكون عليه .

المجتمع القائم على التضامن العضوى *

يرى "دوركايم" عكس النمط الأول : فالتضامن العضوى هو سمة من سمات المجتمعات التى يوجد بها انقسامات فى العمالة ، حيث الإنتاج والتوزيع والاستهلاك وتقوم به كثير من الطرق المتخصصة ، أما الأفراد فهناك فروق شديدة بينهم سواء فى الافعال أو الاعمال . إنه نوع من المجتمعات التى يعرفها معظمنا إنه المجتمع الذى يوجد به خلافات عديدة فى الرأى وفى مختلف أنواع الموضوعات - والذى نراه دائما سائدا فى العالم العقلانى .

وقد نما هذا النوع فى أوربا وشمال أمريكا خلال القرن التاسع عشر . إنه على النقيض بين هذا العالم والعالم الآخر ، والذى يرى "دوركايم" والآخرون الذين يحاولون أن ينتجوا لغة نظرية تصف هذه المجتمعات (أنظر ١ - ١٠) ولكن الطريقة التى وضعت بها المشكلة ، والغرض

---

* وقد أشار إلى هذا التقابل الذى حدده تونيز بين نوعى العلاقات الاجتماعية كثير من مفكرى القرن التاسع عشر ، ممن عنوا بنشأة الحضارة الصناعة ، وأن كان الكثيرون مالوا إلى القول بأن العلاقات بالمجتمع المحلى تقوضت بفعل التطورات الاجتماعية الحديثة "فهنرى مين" على سبيل المثال ميز بين المجتمعات التى تقوم على أساس المكانة Status ، والمجتمعات التى تقوم على أساس العقد ... كما أن كلا من "هربرت سبنسر" ودوركايم قد أشارا الى مثل هذا التقابل ، ويرى عدد من الدراسين أن مثل هذا "التعارض" غير مقنع لأن كل التنظيمات التى تندرج تحت نموذج المجتمع ينطوى على عناصر من نموذج الجماعات المحلية ، ومع ذلك فإن التقابل بين هذين النموذجين له أهمية كبيرة فى تاريخ التفكير الاجتماعى .
محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ . [المترجمة] .

الذى بدأوا به يحدد - على الأقل جزئيا - الإجابة . (أنظر إطار ١ - ٦) وهذا واضح فى اثنين من المقتطفات "لدوركايم" والتى قد قرأتها لتوك وهو يكتب كمطور اجتماعى .

إطار ١ - ١٠ لغة "دوركايم"

أن دوركاييم قد استخدم مصطلح "بدائيا" وكتب أن المجتمع "البدائى" هو اناس يتسمون بتشابه جسمانى إلى حد كبير ، وهاتان الرؤيتان تثيران المشكلة الآتية :

أولا : لم يعرف دوركايم شيئا عن المجتمعات غير الأوربية ، وكان هذا بالطبع مستحيلا إذا ما ألقينا نظرة على المجتمعات غير الأوربية فى عصره ، وعلى سبيل المثال فقد سافر إلى أستراليا لدراسة المواطنين الذين قد أستعان بهم لمساندته فى هذا الرأى . وفى الواقع فإن معلوماته عن كثير من هؤلاء الناس قد جاءت بطريقة غير علمية ، لأنها عبارة عن تعليقات من "مسافرين" .

وثانيا : ربما يقال إن هؤلاء الناس يمكن وصفهم بأنهم بدائيون - تذكر العلاقة الساحرة بين منتجى النظريات ومكانتهم فى الوقت التاريخى البيوجرافى ، وتذكر أن "دوركايم" كان يكتب فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا وانجلترا لم تمارسا محاولات للإمبراطورية .

وثالثا : يرتبط بالإستخدام السهل للمصطلح "بدائى" فلابد أن تعرف لب التطور لعمل "دوركايم" وأعتناقه "للتقدم" . وهكذا نجد أن "دوركايم" وكثيراً من مفكرى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين "وعلم الاجتماع" لم يتعرضوا "للتغير" كما لم يدرسوا ولم يتساءلوا عن الرحلة التاريخية "للتقدم" والتى انتهت فى أوربا . وبكلمات أخرى ، لقد رأوا عالمهم والتنظيمات السياسية والامبراطوريات كدليل أو كحقيقة لعمليات التطور الاجتماعى .

كان الأوربيون فى القرن التاسع عشر متحمسين ومنظمين "معارض عظيمة" ، لنوع أو أخر لإظهار تقدمهم . فقد بنيت "كريستال بالاس" فى لندن لهذا الغرض . وهذه المعارض كانت دائما عبارة عن قطاعات تمثل التقدم ، لأنه من المفروض أنها تؤثر فى الناس وخاصة المستعمرات التابعة للإمبراطورية . والهدف هو وضع الحقائق أمام الزائرين ، لإظهار المستويات المختلفة للحضارة للمجتمع الإنسانى ، وإنصاف أو إحقاق للحق " لدوركايم " كغيره من المعاصرين . نجد "ماكس فيبر" لديه إحساس قوى بما يكلفه التقدم الإنسانى - التفكك الاجتماعى والاضطراب الفرذى - لكن هذا لم يلق لها بالا فى المجتمع ، ولم ينظر إليها على

أنها مشاكل للمجتمعات البدائية الموجودة فى المستعمرات .

التطورية والوظيفية

من كتابات التطوريين ، كان "دوركايم" مفتاح المفكرين فى التنمية الوظيفية والذى يشرح ذلك فى علم الاجتماع . ومثل " سبنسر " "Spencer" فقد اعتبر أن المجتمع يمكن أن نفكر فيه كعضو . هذا النوع من النظريات الاجتماعية تسمى "الوظيفية" وتلخص فى المقتطف الآتى : إن كلمة "وظيفة" أو "أداء" تستخدم بمعنيين مختلفين . ففى بعض الأحيان هى تقترح وجود نسق لحركات حيوية دون الرجوع إلى ما يلى ذلك ، وبالنسبة للآخرين تعبر عن العلاقة الموجودة بين هذه الحركات والاستجابة لاحتياجات العضو . وهكذا يمكننا أن نقول وظيفة الهضم والتنفس وخلافه ، ولكن يمكننا أيضا أن نقول إن الهضم نفسه له وظيفة ، وهو تحويل الطعام إلى سوائل لتعويض ما يفقد ، أما عملية التنفس فلها أيضا وظيفتها ، وهو تقديم اللازم من الغازات لخلايا الحيوان من أجل الحفاظ على الحياة . أما فى المعنى الثانى فإننا سوف نستخدم المصطلح من خلاله ، وبذا نستطيع أن نسأل ، ما هى وظيفة الانقسامات فى العمل ؟ إنها تبحث عن الاحتياجات التى تستطيع أن تمدها بالأشياء .
(Durkheim, E., 1965, p. 49)

من وجهة نظر الوظيفيين أن النظم فى المجتمع وما به من حياة سياسية أو أسرية أو اقتصادية يمكن شرحها فى ضوء الإسهامات المقدمة فى إطار الصحة والرعاية . ومن خلال هذا المنظور يمكن أن يكون المجتمع "صحيا" أو "مريضا" أو "طبيعيا" أو "غير طبيعى" ، وحيث تكون القيمة الأخلاقية غير واضحة . فالمجتمع المريض يكون فى حالة "الأنومى" * . وفى كلمات لدوركايم (السبب ... لحدوث الصراعات الدائمة والاضطرابات المختلفة التى يتعرض لها الإقتصاد العالمى والتى تمثل منظرا حزينا) ، والتى تعد ظاهرة غير صحية ، وهى إما أن تكون ضغوطا أو لتقلل الحرب بين الرجال .(Durkheim, E., 1965, pp. 2-3) وهكذا نرى أن المجتمع الصحى الطبيعى بالنسبة " لدوركايم " هو المجتمع المتجانس . وفى هذا النمط من النظرية ، الصراع مدمر وليس خلاقا . وهكذا نرى أنه رأى لا يتفق بشدة مع الماركسية ، وما يقدمه "دوركايم" ، إذا استخدمناه كملخص فى النظرية الإجتماعية فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إنه لخليط ...

لقد اعطيت اهتماما كبيرا "لدوركايم" لما لنظرياته من قوة ، وتأثير على علم اجتماع التنمية ، وما يرتبط بها من مؤلفات خاصة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وحتى منتصف الستينات معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وحتى بعض من الاقتصاديين الذين يفكرون فى التنمية والتغير ، قد طرحوا بعض الأسئلة بنفس طريقة "دوركايم" . ولا يرجع ذلك لأن له تأثير ، ولكنه أيضا بسبب نوعية هذه الأفكار التى طرحها قد يقبلها الجميع فى ذلك الوقت . تذكر ما قيل مبكرا عن النظرية ذات " القناعة اللغوية " والتى تصف التجربة أو الخبرة والتى تطرح الشرعية القانونية على الوضع السائد لشئون الدولة . ولأن أفكار "دوركايم" كانت سائدة وتعكس ما يراه معظم الغربيين من أراء ومعتقدات ، وخاصة لتحقيق نمط معين من المجتمع (أنظر إطار ١ – ١١) .

(إطار ١ – ١١) دوركايم والعلم

لقد اهتمت مؤلفات "دوركايم" بطرق البحث الاجتماعى والنظريات الاجتماعية ، وقد حاول أن يجعلها "علمية" لكى تكون دافعا ومرشدا إلى العمل ، ولكى تصبح الحياة الاجتماعية وسيلة لتحقيق السعادة – والتى حددها هو بوجود التناغم أو التناسق الاجتماعى . وبذا يكون قد اقتفى أثر "كونت" كما أنه يضرب مثلاً لمن سيأتى بعده من علماء الاجتماع ، محاولا تقديم مشروعات علمية ، والتى هى أساس العمل السياسى وخاصة للسياسى المخلص . وقال : إذا ما فصلت النظرية عن المشاكل العملية ، فلا يعنى ذلك أن أهمل الأخيرة ، بل لكى أكون في وضع أفضل كى أقوم بحلهما . (Durkheim, E., 1965.) استمر هذا الرأى من الفكر التقليدى ، ومازال مستمرا حتى الآن . وعلى سبيل المثال ، اللقب الذى أعطته الأمم المتحدة للعاملين فى برامج التنمية ، أسمتهم «خبراء» ، هؤلاء الخبراء ، بعضهم من علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا ، لأنهم يقدمون طريقة علمية تهدف إلى إحداث التنمية ، ومثل هذه المحاولات العلمية لدراسة المجتمع ، يطلق عليها فى بعض الأحيان (الإيجابية أو الوضعية) .

نظرية التحديث :

الأعمال الأخيرة فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية عن التنمية ، لكتاب

كثيرين ، هم (Redfield, 1953, Parsons, 1966' Levy, 1966' Eisenstadt, 1963, Moore, 1963). ردفيلد ١٩٥٣ وبارسونز ١٩٦٦ وليفى ١٩٦٦ وأيزيستاد ١٩٦٣ ومور ١٩٦٣ ، هؤلاء الكتاب قد اتبعوا خطوات "دوركايم" ، ومعظم كتاباتهم تميزت بالكتابات النظرية عن التغير ، وفى بعض الأحيان كان ينقصها البعد التاريخى والتحليل العميق – أنظر مقتطفات من "شوداك" (Chodac , p.p. 183 - 4) ومن "آيزيستاد" (Eisenstadt, p.p.185-6) فالفروض فى خطوطها العريضة مشابهة لمؤلفات "دوركايم" . إن هؤلاء المفكرين دائما ما يوصفون بأنهم منظرون محدثون ، وأعمالهم تشمل نفس العناصر المتأصلة كما فى (الدوركايمية) :

"التطورية والوظيفية والوضعية"

المقتطف التالى كتبه "ويلبرت مور" " Wilbert Moore " سنة ١٩٦٣ ، مثال لهذا الخلط . وفيها يصف التحديث كالآتى : ... هو عبارة عن انتقال كلى للتقاليد أو لما قبل المجتمع الحديث ، لما له من أنماط للتكنولوجيا والمؤسسات الإجتماعية المتقدمة اقتصاديا ، وتتمتع بالرخاء والاستقرار السياسى ، كما هو موجود فى العالم الغربى .

(Moore W. E., Social Change, Prentice Hall, New Jersey, 1964 p. 89.)

هناك عدة سمات توجد فى نظرية التحديث ، والتى نشأت من اتحاد كل من التطورية والوظيفية والوضعية ، وهذه السمات هى :

١ – تحدث التنمية من داخل المجتمع والعوامل الخارجية ، – مثل الاحتلال والعوامل الثقافية ليس لها تأثير هام .

٢ – التنمية تتبع نفس الأنماط فى كل المجتمعات .

٣ – النتيجة النهائية للتنمية هى الثراء والاستقرار السياسى .

٤ – الدراسة العلمية والتاريخية للمجتمع سوف تعيننا على تحديد نماذج من الخبرات الماضية لبعض البلاد مثل الولايات المتحدة وبريطانيا . ونستخدم هذه التجربة والمعرفة لتحدث نفس النتائج فى الدول النامية أو الدول المتخلفة .

وقد اختصر المؤرخ الأمريكى "روستو" (Rostow) هذا المدخل بإيجاز ، عندما كتب "عن المراحل الخمسة للنمو الاقتصادى" : الحركة المرحلية من خلال المراحل التى يمر بها المجتمع التقليدى ، والظروف السابقة لمرحلة التنمية ، والاقلاع أو الانطلاق والاندفاع نحو النضج ، وأخيرا عصر الجماهير الإستهلاكى (Rostow, 1960) .

التأثير الڤيبرى : The Weberian Influence

هناك نظرية اجتماعية تقليدية أخرى غزت نظرية التنمية ، ونشأت عن "ماكس ڤيبر ١٨٦٤ - ١٩٢٤" معاصر تقريبا "لدوركايم" .

وبكل الطرق نجد أن "ڤيبر" مهتما بالتنمية مباشرة ، وقد كان كل همه هو شرح أو تفسير الرأسمالية (أنظر إطار ١ - ١٢) .

إطار ١ - ١٢ الرأسمالية :

الرأسمالية نسق اقتصادى اجتماعى قائم على جهود الفرد الخاصة فى استثمار رأس المال ، والذى ينتج عن طريق استخدام الآخرين وبيع الإنتاج فى السوق ، مع إعادة استثمار الأرباح من البيع لتوسيع الثروة وزيادة معدل نموها .

والميزات الهامة لهذا النظام هى "السلعة" ، والفكرة أن معظم الأشياء (الأرض والعمل والدم) ، يمكن بيعها . والسوق هو مكان ومحلات وتغير للعملات والمصنع وما يتبعه من توظف - حيث يمكن تبادل السلع بأخرى ، أو بيعها نقدا . إن بعض هذه الآراء تناقش فى الفصل الخامس .

ومن أفضل كتب "ڤيبر" المعروفة هو (أخلاقيات البروتستانت وروح الرأسمالية) ، وقد نشر فى ألمانيا عام ١٩٢٢ ، ونشر باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٠ . إنه يرى أن هناك جزءا من تنمية الرأسمالية ، تظهر بوضوح فيما أحدثته من تغير فى بعض القطاعات فى غرب أوربا وأمريكا ، حيث بدأ المجتمع يفكر وينظر إلى مكانته فى العالم ، ابتداء من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . ومن الأهمية أن نتذكر أن هذا الكتاب لم يكن الكتاب الوحيد الذى كتبه فى دراسته عن الرأسمالية . إن دراسته للرأسمالية كانت جزءاً من دراسة كبيرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية "تجربة عقلية" . وفى هذه التجربة نجده يفحص مجموعة من المجتمعات - فلسطين القديمة ، والهند ، والصين ، وغرب أوربا - آخذا فى الاعتبار محاولة استخلاص المعلومات التاريخية المعقدة ، والتى ظهرت فى مجتمعات مشابهة لنفس المستوى من التنمية التكنولوجية ، ولها توجهات مختلفة . وعلي وجه الخصوص ، فإنه قد حاول أن يجد سببا لانتشار الرأسمالية الصناعية ، والتى أصبحت تشكل نسقا عريضا فى أوربا ، وليست فى

أماكن أخرى . وإجابته على ذلك : يرى أن المعتقدات الدينية لها تأثيرها . وقد أشار إلى نفوذ علماء اللاهوت الفرنسيين ، ومنهم "جين كالفن" (Jean calvin, 1509 - 1564) (١٥٠٩ - ١٥٦٤) .

كان كالفن يعتقد أنه لا يوجد شيء يمكن الإنسان من أن يغير قدره بعد الموت . إن حكمة الله مطلقة ، فهو الذى يقرر ما يحدث . وإن هذا يقلق بعض الذين يعتقدون فى ذلك ، وأن الطريق للخروج من هذه الأزمة النفسية هو الاعتقاد بأن النجاح أو الفشل فى الحياة ، ربما يكون دليلاً على ما إذا كان المرء مصيره الجنة أو الجحيم . فالنجاح مقرون بالجنة والفشل مقرون بالنار . وقد ناقش "فيبر" وأتباع "كالفن" ذلك الموضوع ، وكانوا يعملون بجد فى أى وظيفة يشغلونها ، ويقتصدون ويدخرون ويعيشون عيشة اقتصادية واعية .

وربما يثير هذا التساؤل ، الاستغراب عن العلاقة بين علم اللاهوت الفرنسى «وتنمية المجتمع الرأسمالى . والإجابة هى : إن "ڤيبر" قد أشار إلى أن انتشار مثل هذا النسق الاعتقادى مع السلوك الاجتماعى الذى يصاحبها ، فإنها تتناسب مع أنشطة الرأسماليين . وعلى ذلك فقد أسهم فى انتشار مثل هذا السلوك خلال المجتمع - حتى بين الآخرين غير التابعين "لكالفن" . ويؤكد "ڤيبر" أن الرأسمالية لا تعنى الطمع للوصول إلى الربح ، لأن ذلك متواجد فى كل المجتمعات . إن فيبر يرى :

إن الطمع غير المحدود ، ومن أجل الربح ، لا يعنى أنه يساوى الرأسمالية ، بل وما زال أقل فى الروح . وقد تكون الرأسمالية مطابقة للقيود ، أو على الأقل الطابع العقلانى للدوافع الجامحة . ولكن الرأسمالية تعادل المثابرة من أجل الربح وزيادة الأرباح إلى ما لا نهاية ، عن طريق الوسائل المستمرة والعقلانية ، والمشاريع الرأسمالية . ولابد أن تكون هكذا : ففى المجتمع الذى يسوده النظام الرأسمالى نجد أن المشروع الفردى الرأسمالى والذى لا يستغل الفرص المتاحة لتحقيق الأرباح ، فإنه فى الغالب يأخذ طريقه إلى الاضمحلال .

(Weber, M., The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Unwin, 1967 P.17)

(إطار ١ - ١٣) ڤيبر والقيم

من الملاحظ وجود نقطتين لهما علاقة بنظرية "ڤيبر" . النقطة الأولى ، هى انه لا يشابه غيره من التطوريين الاجتماعيين فى أنه لا يرى أى نمط ضرورى أو توجيه للتنمية فى التاريخ والنقطة الثانية ، أنه لا يتخذ طريقة وضعية علمية مشابهة للتى تستخدم فى العلوم الطبيعية .

إنه يقول : إن المجتمعات لابد وأن تشرح أو تفهم فى ضوء مصطلحاتهم ، وليس فى ضوء مصطلحات خاصة بنظريات عامة ، كالتى أنتجها "دوركايم" ... بينما فى استطاعتنا استخدام الوسائل الفنية الواضحة للبحث والمسح والوثائق . والنظرية التى ننتجها يمكن أن تكون فقط طريقة للوصف الدقيق للطريقة التى يعمل بها المجتمع . أما الطريقة التى نسجل بها هذا الوصف فإنها تتأثر بالأسباب التى تدفعنا لطرح هذه الأسئلة فى المكان الأول . وهكذا يرى "ڤيبر" أنه لا يمكن لنا الاقتراب من أى مشكلة فى علم الاجتماع ، إلا من ناحية نظرتك القيمية . وهذا مهم للإتجاهات السياسية لعلم اجتماع التنمية . وهناك بعض الكتّاب يحاولون إعطاء تأثير علمى محايد .

إن تأثير "ڤيبر" على التنمية الاجتماعية وعلى الفكر الاجتماعى ، ليس مباشرا كتأثير "دوركايم" . إنه تأثير اختيارى ، بينما أعطى اهتماما كبيرا للدراسة التاريخية ، فالذين تأثروا به لم يعملوا نفس الشىء ، (أنظر إطار ١ -١٣) وبدلا من ذلك فقد استخدم الكتّاب جزئين من نظريته فيما بعد . الجزء الأول هو آراء الناس وقيمهم (ثقافتهم) وهى عنصر هام فى التنمية ، والجزء الآخر عن فكرة الرأسمالية ، وتشمل نشر ما يسميه "ڤيبر" (السلوك العقلانى) ، ولذلك فقد اصبحت معايير الحياة اليومية . (أنظر إطار ١ - ١٤)

إطار ١ - ١٤ "ڤيبر والعقلانية"

إن فكرة "ڤيبر" عن العقلانية فكرة معقدة . ففى جزء منها يشمل أفكاراً عن الإحصاء والتخطيط ، وتطبق على كل مجالات الحياة . ونفكر جيدا على سبيل المثال فى موقف صاحب المكتبة ، الذى يحتفظ بكل المعلومات عن العمل فى رأسه ، وليس لديه أى فكرة عن كيفية الربح ، ولكنه يبقى فقط على مصاريف المنزل والعمل مختلطين معا ، ثم فكر فى تاجر آخر قد توسع فى عمله ، واقام كمبيوتراً صغيراً ليعرف سوق المال فى الحال وحساب الربح والخسارة . ومن هنا نجد أن صاحب العمل الأخير أكثر تعقلاً عن الأول . فالخطوات موضوعة لتحقق لصاحبها هدفه ، وهو أقصى ربح مع كفاءة عالية .

وفيما بعد ، فقد تبنى بعض المنظرين هذه الآراء - وعلى سبيل المثال ، فإن بعضهم قد أكد أن التغير من التقليدى إلى الحديث فى المجتمعات ، ومن التخلف إلى النمو (التطور) ، يشمل تغيراً فى تفكير الناس فى المجتمع . إن بعض هذه الأفكار قد سبق ذكرها مع الكتّاب

السـابقين ، على سـبيل المثـال "تالكوت بارسـونز" (Talcott Parsmons) فى الفـتـرة من (١٩٥٥-١٩٧٧)

(Talcott Parsons, The Evolution of societies, ~Prentice - Hall, Englewood Cliffs, 1977, edited and introduced by Jackson Toby Provides a good account of Parsons' writings over the period 1955 - 77). وكثير ممن عملوا معه ، قد أكدوا على أهمية القيم فى تحديد سلوك الناس . وهذا واضح فى أعمال "دفيد مكليلاند" (David Meclelland) (عام ١٩٦٦) فقال : "نرى دائما أن النمو الاقتصادى السريع يفسر دائما فى ضوء العوامل الخارجية – والفرص المتاحة للتجارة والمصادر الطبيعية غير العادية للثروة أو الانفتاحات التى أتاحت فرصة إيجاد أسواق ، أو التى كانت عاملا فى الاستقرار السياسى الداخلى – وتحظى العوامل الداخلية باهتمام كبير من الكُتّاب والقيم والدوافع لدى الناس ، والتى أتاحت لهم فرصا يستغلونها فى الظروف التجارية لصالحهم ، وباختصار لكى تشكل قدرهم .

(The Achievement Motive in Economic Growth, in Hoselitz, B. f. and Moore, W. E. (eds.) Industrialisation and Society, UNESCO-MOUTON, 1966 P.74)

هذا النوع من الاصرار أو التأكيد النظرى theoretical له نتائج ، خاصة فى الممارسة – مشكلات التخلف ، والفقر ، وسوء التغذية ينظر اليها على أنها نتاج الفكر التقليدى ، غير العقلانى . وحل مشاكل التنمية وفقا لهذا الرأى يقع على البرامج التعليمية والمساعدات الفنية الهادفة التى تهدف الى زيادة الحاجة الى تحقيق الانجازات للشعوب فى الدول النامية .

ملخص :

فى هذا الفصل نأخذ العامل المهاجر كنقطة للبداية ، لكى نؤكد كيف تكون حياتنا وعلاقتها بالعوامل والقوى الاجتماعية الخارجة عن إرادة أو سيطرة الأفراد ، أى فيما وراء ضبطنا الفردى .

وقد لوحظ أن علم الاجتماع قد أسسه مفكرون ، مثل "سان سيمون" (Saint - Simon)

و "أوجست كونت" (Auguste Comte) والذين حاولوا فهم التغيرات التى تحدث حولهم فى بداية الثورة الصناعية . إن جذور علم الاجتماع قد ظهرت فى محاولة لفهم التغير الاجتماعى والتنمية .

وفى أواخر القرن التاسع عشر ، بذل "دوركايم" جهدا فى محاولة لشرح التغير الاجتماعى كنتيجة لتغير الروابط الأخلاقية ، وقد سمى هذه الروابط "التضامن الاجتماعى" ومع الآخرين ، أكد على عمليات التطور الاجتماعى وفكر فى دراسة الترابط العضوى للتنظيمات الإجتماعية للمجتمع ، على أن تدرس ككل ، حيث يمكن دراستها علميا . ومثل هذه الآراء ، وجدت قبولاً من أصحاب النظريات الجدد مثل "ولبرت مور" و "وولت روستو" (Wilbert Moore and Walt Rostow) .

وعلى النقيض "لدوركايم" كان "ماكس ڤيبر" (Max Weber) الذى حاول الوصول إلى ما هو موجود فى ديانات الناس والمعتقدات الأخلاقية ، والتى قد أمدت مثل هذه المجتمعات بالخبرات الفنية للتنمية بطرق مختلفة . وقد عرض تأثير مذهب "كلڤن" فى تنمية الرأسمالية الصناعية فى غرب أوربا ، وقد وضحت بعض هذه الأفكار بالتفصيل فى الستينات ، حيث قام كثير من الكتّاب مثل "دافيد مكليلاند" (David Meclelland) .

وهناك موضوع آخر فى هذا الفصل ، هو أن النظريات ليست حقيقية أو مزيفة ، وإنما ينظر إليها على أنها لغات مفيدة ، لمناقشة المشاكل سواء تضمنت أو استبعدت أنواعاً معينة من المعرفة بالنظريات ، توضح المشاكل إلى درجة ما ، وتظهر كيف أن المعرفة يمكن أن تقسم الى مختلف الموضوعات الأكاديمية .

الفصل الثانى

نظرية التنمية فى ضوء الخبرة

فى هذا الفصل سوف نعرض كيف انتقدت نظرية التحديث خلال الستينات والسبعينات فى ضوء تجربة الكثير من الدول فى إفريقيا وآسيا ، والتى حصلت على استقلالها أثناء تلك الفترة ، وخبرة دول أمريكا اللاتينية التى قد سبقتها فى الاستقلال ببضع سنوات (أنظر إطار ٢ - ١) . وكانت المعارضة الأساسية لنظرية التحديث ، هى أن الدول النامية تستطيع اتباع خطوات الدول التى نمت من قبل من خلال طريقهم الطويل المستهلك الذى خاضته نحو التنمية . وعندما اثبتت الخبرة عدم حدوث ذلك ، بدأ علماء الاجتماع فى بناء النظريات التى سألت وأجابت على أنواع مختلفة من الأسئلة . وعلى وجه الخصوص التى سألت عن تاريخ الاستعمار وتأثيره على الدول النامية . وبهذا العمل فإنهم نقلوا مناقشة التنمية بعيدا عن المجتمعات كوحدات أخذت فى عزلة . وتوصلوا إلى ضرورة مناقشة مشاكل التنمية لكل مجتمع على حدة ، وأنه يمكن فهمها بالعلاقة لموقع هذا المجتمع من "النسق العالمى" .

إطار ٢ - ١ تواريخ الاستقلال لبعض الدول

آفريقيا :

انجولا	١٩٧٥	موزمبيق	١٩٧٥
بنين	١٩٦٠	النيجر	١٩٦٠
تشاد	١٩٦٠	نيجيريا	١٩٦٠
الكنغو	١٩٦٠	رواندا	١٩٦٢
غانا	١٩٥٧	سيراليون	١٩٦١
ساحل العاج	١٩٦٠	السودان	١٩٥٦
كينيا	١٩٦٣	تنزانيا	١٩٦١
مالاوى	١٩٦٤	أوغنده	١٩٦٢
مالى	١٩٦٠	زمبابوى	١٩٨٠

الشرق الأوسط وشمال افريقيا :

الدولة	السنة	الدولة	السنة
الجزائر	١٩٦٠	مراكش	١٩٥٦
الأردن	١٩٤٦	تونس	١٩٥٦
الكويت	١٩٦١	اليمن الشمالية	١٩١٩
لبنان	١٩٤١	اليمن الجنوبية	١٩٦٥
ليبيا	١٩٥١		

جنوب وشرق أسيا والباسفيك

الدولة	السنة	الدولة	السنة
بنجلاديش	١٩٧١	باكستان	١٩٤٧
الهند	١٩٤٧	بابوى-غينيا الجديدة	١٩٧٥
إندونسيا	١٩٤٩	سنغافورة	١٩٥٩
كامبوديا	١٩٥٤	سيريلانكا	١٩٤٨
لاوس	١٩٥٤	تايوان	١٩٤٩
ماليزيا	١٩٥٧	فيتنام	١٩٥٤

جنوب ووسط أمريكا

الدولة	السنة	الدولة	السنة
الأرجنتين	١٨١٠	المكسيك	١٨٢١
بوليفيا	١٨٢٥	نيكاراجوى	١٩٨٨
البرازيل	١٨٢٢	بنما	١٩٠٣
كولومبيا	١٨١٩	بيرو	١٨٢١
كوبا	١٩٠٢	ترينيداد	١٩٦٢
السلفادور	١٨٣٨	أوروجواى	١٨٢٨
هايتى	١٨٠٤	فنزويلا	١٨٣٠

(Seurce : Third World Atlas, Crow, B. and Thomas, A., Open University Press, Milton Keynes, 1983.)

نواحى الضعف فى التحديث :

فى نهاية الستينات أصبح ظاهرا أن هاتين الظاهرتين العريضتين التقليديتين -

الدوركايمية (the Durkeimian) والفيبرية (the Weberian) لم يوضحا بكفاءة عملية التغير التى تحدث فى المناطق دات المسميات المختلفة الآن ... "الدول النامية والدول المتخلفة أو (دول العالم الثالث) .

إن الدول حديثة الاستقلال فى إفريقيا وآسيا قد توقع منها أن تتقدم بطريقة منتظمة تؤدى إلى النمو الاقتصادى والديموقراطية البرلمانية . بينما نجد أن الانقلابات العسكرية ودول الحزب الواحد ، عَمّقَتْ الفقر فى كثير من الدول ، كذلك أدت الحرب الفيتنامية إلى تقبل نتائجها على نطاق واسع لدرجة أن معظم التحليلات المنطقية (Logical analyses) كانت غير كافية . إنها لم توضح ما يحدث فى العالم الثالث بشىء من الواقعية ، ولماذا استمر الفشل فى الدول النامية للحصول على الطعام واستمرار حاجة مواطنيها للحصول على نمو اقتصادى وتنمية مستمرة . وتغيرت الاهتمامات من المحاولة لإيجاد طرق تقدمية نحو التنمية . وأصبحت المشكلة الأساسية الآن ، هى تفسير وجود الفقر فى عالم يوجد به بعض الشعوب غاية فى الثراء بينما هناك آخرون يرزحون تحت وطأة الفقر . بينما فى أوربا والولايات المتحدة قد توصلوا إلى أسباب الفقر (انظر إطار ٢ - ٢) .

إطار ٢ - ٢ الفقر والرخاء

كانت فترة الستينات فى بريطانيا فترة رخاء نعم بها معظم البريطانيين . ومع ذلك فإن الأبحاث التى أجريت على الفقر فى المملكة المتحدة أظهرت أنه على الرغم من وجود هذا الرخاء الظاهر ، إلا أن الفقر لازمه على طول الخط ، وظهر ذلك بوضوح حيث قلت الموارد مما أدى إلى منع الكثير من الناس فى المساهمة فى الحياة الاجتماعية ومناسباتها ، مما اعطى للحياة صورة جديدة . مثال ذلك هو اختفاء حفلات أعياد الميلاد أو الذهاب لدور السينما ... الخ ، ونستخلص من ذلك أن الفقر عامة ليس بالضرورة نتيجة لنقص أو عجز فى البضائع أو الخدمات فى المجتمع ولكنه يعكس لنا سوء توزيع مثل هذه البضائع والخدمات .

وجمعت اللجنة الملكية لتوزيع الدخل والثروة المعروفة باسم (Cmnd 7595, HMSO, 1979, known as the Diamond Report) كثيرا من الحقائق عن الموقف فى الستينات وبداية السبعينات . وقد ظهر أنه فى المملكة المتحدة الدولة العالية التنمية ، كان هناك درجة كبيرة من عدم المساواة . إذ أن نسبة ١٠٪ من أصحاب الدخل الكبير حصلوا على نسبة ٢٣٪

من إجمالى الدخل ، بينما نسبة ١٪ من المرموقين مالكى الثروة قد حصلوا على نسبة ٢٧.٦٪ من اجمالى الثروة .
(Diamond Report, 1979, pp. 15 and 80.)

إعادة اكتشاف علم الاجتماع الماركسى :

بمواجهة هذه الصعوبات فى فهم الدول النامية ، أعاد علماء الاجتماع دراسة مصدر آخر من الفكر الاجتماعى الذى قد سبق أن تجاهلها علم الاجتماع الغربى .

وهذه هى الأفكار القائمة على فكر كارل ماركس (Karl Marx) (١٨١٨ - ١٨٨٣) وفردريك إنجلز (friedrich Engels) (١٨٢٠ - ١٨٧٥) وغيرهم من المفكرين الماركسيين أمثال ليون تروتسكى (Leon Trotsky) (١٨٧٩ - ١٩٤٠) وفلاديمير لينن (Vladimir Lenin) (١٨٧٠ - ١٩٢٤) وماو تسى تونج (Moo Tse-tung) (١٨٩٣ - ١٩٧٦) .

إنه لمن الغريب أن نتجاهل مثل هؤلاء ، بسبب أفكار الإثنين الأولين وأعمال الآخرين ، لأنهم قد أحدثوا كثيرا من التغيرات فى حياة الملايين من البشر . وأحد أسباب هذا التجاهل هى الحرب الباردة والآخر لأن آراءهم كانت دائما منتقدة لمفهوم الرأسمالية الحديثة التى كانت نقطة النهاية والهدف للنظريات الإجتماعية الموجودة .

ولدينا مثال على أن بعض النظريات الإجتماعية يمكن أن تكون غير مقبولة بسبب المناخ السياسى والثقافى لفترة بعينها . ففى أثناء الحرب الباردة ، كان من الصعب على أصحاب النظريات theorists الأمريكان رؤية الجانب الآخر .

وهناك سبب إضافى هام لإعادة اكتشاف الفكر الماركسى فى التنمية الاجتماعية هو بدون شك بعد عام ١٩٥٦ كان عمل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين فى كثير من البلاد التى استقلت حديثا . وهناك تقابلوا وتبادلوا الحديث مع أعضاء تلك المجتمعات من المتعلمين ، وتعلموا منهم أنه خلال فترات الكفاح للحصول على الاستقلال فى دول العالم الثالث ، قد وَجَدَ مفكروا هذا العالم أن النظريات الماركسية كان تفسيرها أفضل ، وأرشدتهم للعمل دون منافسة نظرية التحديث الغربية .

ماركس وإنجلز : (Marx and Engels)

عاش "ماركس وإنجلز" فى القرن التاسع عشر ، وواجه كل منهما نفس المشكلات التى مرٌ بها "دوركايم" ، "ڤيبر" والتى حاول كل منهما معالجتها .

وعلى النقيض من هذين المفكرين ، وجد أن عمليات التغير الاجتماعى والتنمية هى الطبيعية ، وليست التدرج والتطور ، وشغل اهتمام كل من العالمين - ماركس وإنجلز - صراع طبقات المجتمع . ولب هذه الصراعات هو ما يسمى بالمتناقضات ، التى هى نتيجة لعدم وجود التناسب بين ماينتجه المجتمع ومصادره البشرية والفنية ، إلى جانب العلاقات الاجتماعية للإنتاج ، والتى حالت دون تحقيق الجهد . وقد نظر إليها على أنها فاصل (disjunction) بين جهود الإنتاج للمجتمع وتوزيع البضائع والخدمات بين أعضائه .

وأهم شىء فى هذه النظرية ، هو رأيها فى التغير الاجتماعى ، الذى تراه وكأنه شىء لابد من حدوثه بعيداً عن الصراع السياسى والتغير الجذرى الراديكالى الذى يصاحبه تفكك بالمجتمع وعدم الاستقرار ، وانقطاع مفاجىء عن كونه تطورا رسميا تدريجيا . وعلى سبيل المثال : إن بعض الناس يشملهم اهتمام واحد قد أبعدوا عن مراكزهم فى الإنتاج (مثل العمال المستأجرين) وعليهم أن يكونوا تنظيما لكى يصلوا إلى النتيجة التى يرغبونها .

هذا الصراع يسمى صراع الطبقات ، وبالنسبة للماركسية ، فإنهم يرونها محرك التغير الاجتماعى والتنمية .

ومن هذا المدخل الرئيسى نبعت أشياء كثيرة ، ولكن واحدة فقط هى التى على درجة من الأهمية لنا... إنها لطبيعة الإمبراطوريات التى قد هزمتها القوى الأوربية . او قد نمت فكرة لدى "لينين" وغيره ، أن الإمبراطوريات ليست نتاج سياسة معتدلة للحضارة الأوربية ، بل على العكس فإن الاستعمار هو نسق استغلالى اقتصادى اجتماعى وسياسى . وعندما تتغير البلاد المستعمرة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، نجد أنها قد غيرتهم فى النظام ، بحيث يمكنهم إيجاد مدخلات رخيصة فى المجتمعات الرأسمالية إلى جانب إيجاد أسواق لتصريف منتجاتهم . كل هذه الترتيبات كانت دائما تعمل من أجل صالح القوة الإمبريالية . ولذا نجد أن السؤال الخاص بالتنمية يختلف عن تلك التى سبق أن أوضحناها . إلا أننى سوف أشير إلى نقطة هامة قد أوضحتها خلال إطار ٢ - ٣ .

إطار ٢ - ٣ الاستعمار فى إفريقيا

يصف هذا الأطار الاستعمار فى أفريقيا بطريقة تتفق والنظرية الماركسية ، ويلاحظ أنها تفرق بين التأثيرات المختلفة للاستعمار فى مناطق مختلفة .

لقد وجد الغزو الاستعمارى ... (أفريقيا) ... على درجات مختلفة من التنمية . وبحلول القرن التاسع عشر ... انتج فلاحو غرب إفريقيا الكثير من المحاصيل والبضائع التى شملت القهوة وجوز الهند والجنزبيل . كل ذلك قد ساعد على رواج التجارة مع أوربا بعض الوقت ، مما أتاح الفرصة للمستعمرين لإخضاع الزراعة المحلية لاهتماماتهم عن طريق احتكار عمليات التسويق والتجارة الإفريقية ...

أما انتاج فلاحى شرق أفريقيا ، فقد كان إنتاجا مغلقا ، واقتصاداً طبيعيا . والتجارة مع أوربا لم تكن منتعشة ، بل كانت ضعيفة ، وتقوم عن طريق التجار العرب ... ولكى يمكن الحصول على المواد الخام الضرورية من حيث النوع والكمية ، فكان لابد من التدخل وإيجاد حل مماثل للموجود فى غرب إفريقيا . إلا أنه فى مثل هذه الحالة كان الحل يتم عن طريق مصادرة الأرض وتشغيل المزارع الأوربية وتحويل الأهالى إلى عمال فى تلك المزارع .

أما فى "الكونجو البلجيكى" فكانت السياسة الاستعمارية مقيدة بانتاج المطاط . ولكى يجعل الإفريقيين يجمعون المطاط ، كان لابد من مصادرة أراضيهم وطردهم بالقوة إلى الغابة

(Nzula, A.T., et. al., forced Labour in colonial África, Zed Press, 1979, pp.38 - 40. Originally published

إن النظرية الماركسية لاتفرق بين عالم الاجتماع الخبير وبين السياسى صانع السياسة . إنها لا تعترف بذلك لأنها ترى أن النظرية والممارسة ما هما إلا وجها عملة واحدة ، ينموان معا فى علاقة مغلقة واحدة ، وبكلمات أخرى ، أن (اللغة النظرية) لنظرية "ماركس" لابد وأنها ترتبط ارتباطا وثيقا محكماً ، حتى أنها تنمو من خبرات الناس المستغلين والمضطهدين فى حياتهم اليومية . (انظر إطار ٢ - ٤) وعلى ذلك ، إذا ما أردت أن تضع نظرية عن هجرة العمال ، فلا يعنى أنك تجلس فى مكتبك وتضع تلك النظرية ، بل لابد أن تواجه هؤلاء المهاجرين من العمال ، وتستمع إلى قصصهم ، وتدرس خبراتهم ، وتصبح فردا منهم فى كفاحهم ،

عندئذ تستطيع أن تضم كل هذه الخبرات إلى نظريتك ، التى قد تصبح نظرية سياسية واجتماعية .

إطار ٢ - ٤ الماركسية والعلم

إن الفكر الماركسى له نظرية علمية ، تختلف عن الوضعية * positivists مثل "دوركايم" وورثته من الصفوة المثقفة . فمن وجهة نظر "ماركس" ، أن النظرية الاجتماعية لا يمكن أن تكون موضوعية (Objective) وذلك للسببين الآتيين : ...

(١) إن ما يميز المجتمع هو صراع الطبقات . (٢) إن الأفكار السائدة (والنظريات) هى أفكار الطبقة الحاكمة . ويتبع ذلك عمليات صراع طبقى ، قد ينشأ عنها جماعات معارضة لها نظرياتها الخاصة ، والتى تمدهم بلغة قادرة على التعامل مع احتياجاتهم ومشاكلهم التى يواجهونها من مواقعهم فى المجتمع . هذا الرأى عن النظريةالاجتماعية يسمى "Praxis" أو العملى أو وحدة النظرية مع الممارسة ، وهى تتناقض مع رأى الوضعيين لعلم الاجتماع ، والتى ترى أن العالم الاجتماعى social world يمكن دراسته على أنه "شىء" .

وبالرغم من أن "ماركس" نفسه لم يطبق ذلك ، إلا أن كثيرا من أتباعه طبقوه . وعلى سبيل المثال نجد "ماوتسى تونج" الذى قاد ثورة الصين فى الثلاثينات والأربعينات ، قد ذهب

* إن "الاتجاه الوضعى" Positivism موقف حسى يدعى أنه يمكن اشتقاق المعرفة من التجربة الحسية ، ولهذا يرفض التأمل الميتافيزيقى والادراك الذاتى ، والتحليل المنطقى ، لأنها وسائل تقع خارج نطاق المعرفة الواقعية ، وتنظر الواقعية إلى مناهج العلوم الطبيعية بوصفها الوسائل الوحيدة الملائمة للحصول على المعرفة ، الأمر الذى يتعين معه على العلوم الاجتماعية أن تقتصر على استخدامها ، وهناك شبه اتفاق على أن كونت هو مؤسس هذا الاتجاه ، ويعنى عنده الاعتماد على الوقائع أو الخبرة ، ورفض الفلسفات ذات التحليلات الميتافيزيقية ولكن كارل بوبر رفض فكرة القانون عند كونت حيث أكد "بوبر" أن القوانين التى تحكم البشرية قوانين سيكولوجية تحول دون الملاحظة المباشرة للحياة الاجتماعية . وحديثا ظهر ما يعرف بالوضعية المنطقية والتى طورتها مدرسة فيينا (برجمان ، وكرناب ، وفرانك ، وشيلك ، وغيرهم) ويهدف هذا الاتجاه إلى التدليل على انعدام الميتافيزيقا ووضع أثاث ثابت للعلوم عن طريق منهج التحليل المنطقى للتصورات والقضايا والاهتمام بالدلالة الامبيريقية لها . ويطلق بارسونز مصطلح الوضعية على أى نظرية اجتماعية ترى "أن العلم الوضعى يمثل العلاقة المعرفية الوحيدة والممكنة للإنسان بالحقيقة الخارجية" : إذن الوضعية تعتبر العلم الطبيعى (وليس التاريخ) هوالنموذج الوحيد للمعرفة الإنسانية ، وينعكس ذلك على تصورها الخاص لطبيعة العلم بوجه عام . كما أن الوضعية المنطقية وهى تطور عن الاتجاه الوضعى ، يرى أن حقيقة أى حكم تكمن فى التحقق منه عن طريق التجربة الحسية .

- محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ص . ص ٣٣٩ ، ٣٤١ . ... [المترجمة] .

بنفسه إلى إقليم هونان "Hunan" الريفى ، وكتب تقريراً مستمداً عما شاهده وسمعه . وهذا العمل يختلف كثيرا عن طرق البحث لكثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين ، والذين استخدموا زياراتهم الميدانية فقط لاختبار النظريات التى قدموها أو قدمها آخرون من قبلهم .

ومثل هذا الرأى الذى يوضح كيف ولماذا يجرى البحث ويظهر للوجود ، يبين أن مثل هؤلاء الناس مشغولون بالممارسة السياسية ، ومن ثم نجد إصرارهم على إيجاد صلة وثيقة بين التحليل العلمى والعمل السياسى ، وبين النظرية والممارسة السياسية .

وفى عام ١٩٦٧ بدأ هذا الفكر الماركسى التقليدى فى جذب اهتمام مجموعة كبيرة من علماء الإجتماع وآخرين مهتمين بالتنمية .

وقد هاجم فرانك (A. G. Frank) وهو أحد الاقتصاديين الأمريكان ، ومن أصل ألمانى ويقيم فى أمريكا اللاتينية ، نظرية التحديث السائدة بعنوان مثير وهو «علم اجتماع التنمية وتخلف علم الاجتماع» ، كما أعتبر هذا الكاتب هذه النظريات عديمة الفائدة من وجهة النظر السياسية ، لأنهم قد فشلوا فى التعريف الصحيح لأنواع العمليات الاجتماعية والاقتصادية فى الدول النامية . وفى عمل أخير عاد إلى مساندة مثل هذا التأكيد بتفاصيل تاريخية بدراسة حالات مثل "شيلى" و "البرازيل" . ولما كان الاقتصاديون وعلماء الاجتماع بهذه البلاد – أمريكا اللاتينية – تجذبهم الماركسية التقليدية ، فنجد أنهم يوضحون مشاكل مجتمعهم ، وأرجعوها إلى أسباب ايدولوجية ، إلا أن علم الاجتماع الغربى كان دائما يعرفها على أنها «تنمية» .

وإذا ما عرضنا المشكلة بهذه الطريقة ، فإننا نجد أن التنمية يمكن أن تحدث فى أى مجتمع إذا ما تبنى السياسة الاقتصادية السليمة مع برلمان ديموقراطى . وقال "فرانك" إن هذا مستحيل ، فبدلا من إمكانية التنمية نجد أن ما هو موجود فى الواقع عمليات من التخلف . وقد تلاحظ أنه قد أعطى هذه الكلمة معنى جديدا . فهو يعنى أن العلاقات بين الدول الغنية والدول الفقيرة علاقة تعاطف فقط مع الأخيرة . إلا أنه ينبغى أن نراهم على أنهم مدمرون لهم ، ومعوقون ومشوهون لتنميتهم . أى أن التخلف لا يعنى أنه المرحلة التى تسبق التنمية ، بل ينبغى أن ينظر إليها على أنها نتيجة نهائية للاستعمار والاحتلال .

والمصطلح "Underdevelopment" (غير النامية) أو المتخلفة قد استخدم لتعريف الدول التى تستخدم تكنولوجيا بسيطة ، وليست متأثرة بالمجتمعات المتقدمة . وهذا الرأى الخاص

بالدول الناميةوالمتقدمة ، يرى أن ذلك نتاج للتفاعلات بين المجتمعات . (أنظر إطار ٢ - ٥) .

(إطار ٢ - ٥)

(رسالة عن الرأسمالية فى الدول النامية)

ذكر "فرانك" (Frank) فى دراسته عن أمريكا اللاتينينة ، أن الدول النامية فى وضعها الحالى ، هى نتيجة للنمو الرأسمالى .

إن الكتابة عن "شيلى" والمفهوم الماركسى المتناقض يقول ... إن التخلف فى شيلى نتاج لأربعة قرون من التنمية الرأسمالية ، مع وجود التناقض فى داخل الرأسمالية نفسها .

وهذه التناقضات هى عبارة عن مصادرة الفائض الاقتصادى من الكثيرين وإعطائها للقلة ، وتركيز النسق الرأسمالى فى المدن الرئيسية والتابعة لها فى الأطراف ، مع استمرار البناء الأساسى للنسق الرأسمالى من خلال تاريخ توسعها ، وانتقالها نتيجة لحدوث مثل هذه المتناقضات فى كل ماكان ، وعبر العصور .

إن رسالتى هذه توضح المتناقضات فى النظام الرأسمالى والتنمية التاريخية فى ظل النسق الرأسمالى قد أوجدت مانسميه بالتخلف التنموى فى الدول التابعة ، والتى يصادر فيها الزائد من إنتاجها ، بينما ولدت تنمية اقتصادية فى المدن المركزية ، والتى تستولى على ذلك الفائض - وإلى حد ما فإن هذه العملية لا تزال مستمرة .

(Frank, A.G., Capitalism and Underdevelopment in Latin America, Penguin, 1971p.27.)

تحول علم اجتماع التنمية :

إن هذا الخط من الفكر جعل علم اجتماع التنمية أكثر انتقادا وإحراجا لوجود هذه العلاقات بين الأغنياء والفقراء من الدول . وقد أثيرت بعض التساؤلات مثل : هل الطريق للتنمية يكون ثوريا أو انسحابا كاملا من نسق العالم الاجتماعى والسياسى والعلاقات الاقتصادية أم لا ؟ كما أن هذه العلاقات قد أوجدت أسئلة ليست مريحة عن العلاقات بين الأجزاء المختلفة للمجتمع الواحد ، وليست فقط فى دول العالم الثالث ، وعلى سبيل المثال ، بين أغنياء جنوب شرق بريطانيا وبين فقراء الشمال .

وقد عرف "فرانك" (Frank) وآخرون ممن كانوا فى اتفاق واضح معه ، قد أصبحوا معروفين كأصحاب (نظريات التبعية) "Dependency Theorists" وقد أثارت أفكارهم سؤالا عن التنمية بطريقة جديدة ، وعلى وجه الخصوص ، فقد تضمنت ما يجب على علماء الإجتماع أن ينظروا طويلا إلى "أنفسهم" ويتعجبوا كيف حدثت تنميتهم . إنها قد اتخذت (تنميتنا) داخل الحسابات فى شرح تنميتهم . ومهم للغاية أنها جعلت علماء الاجتماع يفكرون بجدية فى دراسة التاريخ ، ودور الماضى فى فهم الحاضر .

وبعيدا عن التحيز ، فإن نظرية التبعية قد أعطت الشرح بمنتهى السهولة .فمشاكل العالم الثالث يمكن أن تفهم الآن كعائد للاستثمار أو الاستغلال من جانب العالم المتقدم -ولكن العوامل الداخلية كالقصور أو النقص فى الموارد الطبيعية ، وصراع الطبقات أو النمو أو الزيادة السكانية ، يمكننا من إعادة النظر فيها . وبهذا البعد فإنها قد شجعت اليوتوبيين بدرجة ما – وكل شىء سيكون صحيحا إذا ما كانت التبعية حدثت فى نفس الاتجاه ، وأيضا بدرجة من التشاؤم ، إذا ما كانت التبعية فلم تحدث أو تتفق مع نفس الإتجاه . وعلى ذلك فلا يمكن للسياسيين ، وصانعى القرار أو الناس أن يعملوا شيئا . فى حين ظهرت نظرية التبعية لتمدنا بنموذج بسيط ، وقوى لطبيعة وأصل التخلف . وقد فشلت فى مواجهة بعض الأسئلة الهامة والمحورية فى نظرية التحديث . وعلى الأخص فإنها لم تعط الوزن الحقيقى للدور الذى يقوم به كل من الأفكار والثقافة فى التنمية . وإنك سوف تعيد السؤال ، تحت تأثير "ڤيبر" (Weber) . عن ما هو الدور الذى لعبته المعتقدات الدينية . إن أسئلة كهذه تبقى غائبة عن نظرية التبعية . وبالإضافة إلى ذلك ، يمكن القول إن نظرية التبعية عامة للغاية . وإنها لا تفرق بكفاءة بين ما هو تاريخى وبين ظروف وملابسات المجتمعات المختلفة . ويمكنك أن ترى من المثال فى (الإطار ٢ – ٣) فى افريقيا حيث التعدد الاستعمارى . إنه قد اعتمد على تكوين من التنظيم الاجتماعى والاقتصادى المتواجد هناك قبل الاستعمار .

بحث ورسالة "وارن" (Warren) :

هناك إحدى الإجابات التى ترد على نظرية التبعية من قلب الماركسية . فمن الملاحظ أن التنمية تمتد جذورها فى زى ماركسى لاتخاذ شكل رأسمالى مدمر للمجتمعات غير الرأسمالية ، لكى يسمح بإقامة هذا البناء أولا بجوار الخطوط الرأسمالية ، وبعد ذلك الاشتراكية . إن "ماركس" فى كتاباته المتبعثرة عن الهند فى القرن التاسع عشر يلوم ما رآه بالطبيعة المتحفظة العميقة للمجتمع الشرقى . و"بيل وارن" فى كتابته سنة ١٩٨٠ (الاستعمار رائد الرأسمالية ١٩٨٠) يلوم

بالتساوى ما يعتبره باليوتوبيا (المثالية) أو مثالية نظرية التبعية (Dependence) فهو يراها نتاج لفترة ما قبل الاستعمار ، والتى كانت جزءا من الايدولوجية القومية ، وصاحبة حركات الاستقلال ، وقد استخدمت كسبب لوجود الفقر والتخلف فى دول العالم الثالث ، ملقية باللوم على الدول النامية ، وفشلت فى ملاحظة أن التنمية الرأسمالية أخذت مكانها فى كثير من دول العالم الثالث . وعلى سبيل المثال فى مصر والأرجنتين والبرازيل ، يمكننا القول بأن الصناعات هى الأساس والأهم فى الاقتصاد ، كما هو موجود فى الولايات المتحدة وكندا . "وارن" سنة ١٩٨٠ ص ٢٤٥ (Warren, 1980) إنه يقول أن نظرية التبعية لم تعترف أن هناك أسبابا كثيرة داخلية فى مجتمعات العالم الثالث ، والتى كانت سببا فى تخلفهم (انظر إطار ٢ - ٦) فهو هنا يفكر فى غياب الملتزم أو المقاول (الذى اعتقد "فيبر" و"ماكلاند" فى أهميته) وبالتالى فإن هناك أنماط ثقافية مثل عزل المرأة أو استبعادها .

إطار ٢ - ٦ رأى "وارن" فى التنمية الرأسمالية :

(١) إن رأيه على النقيض للآراء الماركسية السائدة "والتى يقصد بها - نظرية التبعية" ، فالحقائق تؤكد أن احتمال نجاح التنمية الرأسمالية فى الدول المتخلفة هو الأفضل
(٢) إن هناك تقدما ماديا "من خلال هذه السطور" أمكن تحقيقه ، خاصة فى التصنيع .
(٣) إن الإستعمار المباشر بعيد عن أنه سبب التخلف أو التشوه لطبيعة التنمية الرأسمالية ، إذ أنه يقوم بدور الآلة القوية للتغير الاجتماعى المستمر عن طريق تأثيره المدمر على الأنساق الاجتماعية قبل الرأسمالية ، وذلك عن طريق إيجاده لعناصر رأسمالية (٤) طالما أن هناك عوامل معوقة ... للتنمية ، لم تنشأ فى العلاقات بين الاستعمار والعالم الثالث ، ولكنها نتاج المتناقضات الداخلية فى العالم الثالث نفسه (Warren, B., 1980) .

بارنجتون مور : (Barrington Moore)

هو أحد أصحاب نظرية التنمية ، والذى يقف بعيدا عن نظرية التبعية "بارنجتون مور" وهو كمؤرخ ، فحص تاريخ العديد من الدول المختلفة مثل فرنسا والولايات المتحدة واليابان والصين ، وقد توصل إلى وجود طرق مختلفة للتنمية ، وفى رأيه أن هناك ثلاث طرق هى :

(١) الثورة الديمقراطية البرجوازية أو الشعبية ليقوم بها أو تقودها الطبقة المتوسطة القوية بالفطرة ، والتى نشأ عنها الرأسمالية الديمقراطية فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

(٢) الثورة الفاشستية كما فى ألمانيا واليابان ، حيث كانت مهارات الملتزمين أو المقاولين ضعيفة ، وجدت الرأسمالية من خلال السلطة الحاكمة .

(٣) ثورة الفلاحين ، والتى تؤدى إلى الشيوعية ، كما فى روسيا والصين ، وتتركز فى ملكيات جافة ذات اتجاه للتنمية الرأسمالية ، وكان الطريق يعتمد على الطبقات الصاعدة من طبقات الفلاحين ، ويقودها المفكرون «الصفوة المثقفون» .

ويختلف "مور" عن الماركسية وعن نظرية التحديث ، إلا أنه يستخدم أفكارا من كل منهما . وفى رأى "مور" أن التنمية المتصلة ، عملية داخلية ، وتعتمد النتائج على قوة الترابط لطبقات المجتمع .

والطبقتان الرئيسيتان اللتان يهتم بهما تبدوان بوضوح من البداية فى عنوان كتابه (الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية : السيد والفلاح فى عملية خلق عالم جديد . (Penguin, 1966)

نظرية النسق العالمى : (World System Theory)

هذا النمط من النظريات يمتد جذوره إلى الماركسية ، فهو عبارة عن تطور لنظرية التبعية ، إلا أنه يختلف عنها فيما تلقيه من اهتمام للخواص التاريخية لمناطق مختلفة من العالم ، ولا تعمم بنفس الطريقة . فهى ترى أن مشاكل العالم الثالث نتيجة لعلاقات تاريخية كان فيها الاستغلال بين الدول المتقدمة والمجتمعات النامية أو المتخلفة (Underdeveloped) ونرى المنظور قد تغير كلية ، فنرى أن التنمية لا ينظر إليها على أنها مشكلة تواجهها مجتمعات منفصلة ، فلا يوجد مجتمع لا يتأثر كلية بالتنمية العالمية الاقتصادية الاجتماعية .

وبالرغم من أن هذا الرأى ليس جديدا ، فإنه قد أعيد كتابته بوضوح فى مؤلفات "إيمانويل والرستين" (Immanuel Wall) . ففى كتابه "النسق العالمى الحديث : الرأسمالية الزراعية وأصول الاقتصاد الأوربى فى القرن السادس عشر (Academic Press, New York, 1974) يقول "والرستين" :

... لقد تخليت عن الأخذ بفكرة سيطرة الدولة أو ذلك المفهوم الغامض (Vaguer concept) "المجتمع القومى" كوحدة للتحليل . وقررت أن كليهما نسق اجتماعى ، ولكن المرء يمكنه التحدث

عن التغير الاجتماعى فى الأنساق الاجتماعية . وأن النسق الوحيد فى هذا المخطط هو النسق العالمى . (Wallerstein, I., 1974 p.7.) . نظريات النسق العالمى ("وارستين" لم يكن وحده ، بل كان هناك "سمير أمين" و "فرانك" فى كتاباته الأخيرة) يمدون بلغة نظرية تجمع بين نظريات الصراع الاجتماعى مع الاقتصاد ومع الحقائق الاقتصادية والتاريخية على نطاق عالمى . وهى تحلل مشاكل بعينها للتنمية والتخلف من خلال مصطلحات تاريخية واجتماعية واقتصادية ، فى الضوء العريض لأحداث المجتمع العالمى ، وعلى وجه الخصوص تنمية الرأسمالية . وفى ضوء هذه الرؤية للأشياء ، نرى أن العمالة المهاجرة الذين بدأنا بهم ، ليست وحدها . والأشياء الأخرى التى يمر بها العمال المهاجرون ، يمكن لنا رؤيتها كنتاج لواقعهم من خلال مصطلحات التغير التاريخى التى تحدث فى العالم .

الفلاحون والنسق العالمى :

هناك تطور للنظرية الاجتماعية لابد وأن نكون على علم به ، وهو استجابة للمشاكل الظاهرة فى نظرية التبعية . وربما يمكنك أن تسترجع أن نظرية التبعية ، كانت عامة للغاية ، وإنها تتهم بذلك "العمومية" للغاية (too genneral) ، لأنها لا تشرح شيئا . وللرد على هذا ، نستطيع أن نفحص تفاصيل الأنساق الاجتماعية فى العالم الثالث ، ولكى نشرح لماذا كانت من خلال النسق الرأسمالى ذو العلاقات المستغلة بين المجتمعات . وبعض المجتمعات تبدو أنها قادرة على البقاء والإنتاج بطرق لم تكن على الأقل رأسمالية .إن هذه النماذج المختلفة للإنتاج ، ولو على المستوى الصغير ، مزرعة لفلاح أو مرعى صغير ليست رأسمالية ، فهم لا يعتمدون على عمال بالأجر ، يعملون لدى صاحب عمل ما ، أو لدى أصحاب مزارع خاصة – فماذا هم كانوا ؟ وكيف انغمسوا داخل العلاقات الخاصة بالتبعية بين المجتمعات ؟

والإجابة أمدتنا على أنهم قد أسهموا فى نمو الرأسمالية ، لأنهم قدموا مدخلات رخيصة إلى الإنتاج الرأسمالى . (انظر الإطار ٢ – ٧) .

إطار ٢ – ٧ (فلاح فى كولومبيا)

إن "مايكل توسج" (Michael Taussig) قد درس العلاقة بين الملكيات الزراعية الصغيرة وبين المزارع الكبيرة فى وادى «كوكا» بكولومبيا ، وتوصل إلى النتيجة التالية : فى

تطور العلاقات بين الزراعة الرأسمالية والإنتاج الزراعى ، فنجد أن الأولى كانت أقل كفاءة عن الأخيرة ، نتيجة لعدة حقائق وأزمات . وبسبب احتكارها للأرض ، فنجد أن الزراعة الرأسمالية تعوض عن عدم كفايتها بأنها تستفيد من كفاءة الفلاح نفسه ... فهى تتجه لتخفيض حجم الأرض الزراعية عند الحد الأدنى معطية الحرية لطبقة الرأسمالية لكى تجمع الفائض . وبكلمات أخرى كبر الحجم والتكنولوجيا لا يعنون فقط الكفاءة ، ولكنهم مزودون بالعضلات الضرورية لدفع العمالة بالقوة ، إلى جانب النظام والسلطة الضرورية لاستخلاص فائض القيمة من العمالة .

(Taussig, M., Peasant Economics and thd Development of Capitalist Agriculture in the Cauca Valley, Colombia, in Harriss, J. C. (ed.) Rural development, Hutchinson, 1982, p.181.)

وعلى سبيل المثال ، المنتجون الزراعيون ، لا يحسبون بدقة تكاليف عملهم . فهم يعملون بجد ، طالما وأن ذلك مطلوب لمقابلة احتياجاتهم من أجل البقاء . وإذا ما انخفضت أسعار منتجاتهم ، تجدهم يعملون ساعات أطول ، فهم لا يحصون الثمن بدقة ، ولا يحسبون ما إذا كانت هذه الساعات الأكثر تساوى شيئا فى مصطلحات الربح . وإذا كانت ظروف السوق معادية ، فإنهم يستطيعون نظريا الإنسحاب من الإنتاج إلى السوق . وكلما ظل الفلاح هو المنتج ، فإنه يظل جزءا مرتبطاً بالنسق العالمى ، وعندئذ فإنهم يقدمون أو يمدون أشكالا مختلفة من المدخلات الرخيصة للإنتاج ، سواء تمثلت فى عمالة رخيصة أو قطن رخيص .

الفلاحون كنوع خاص من الاقتصاد :

لقد فسر علماء الاجتماع (والاقتصاديون) أن الاقتصاد الفلاحى فعّال للغاية . ومما يؤكد أو يبرهن على ذلك ، أن مزارع الفلاحين ليست بدائية ، ومن ثم فهم لم يكونوا أكفاء بدرجة عالية ، إلا أن لديهم معلومات تفصيلية عن زراعتهم . وبسبب رغبتهم فى البقاء ، فإنهم يبذلون جهدا كبيرا فى العمل فى كل جزء من الأرض .

وبخصوص هذه الحقيقة ، هناك مدرسة خاصة من علماء الاجتماع ترى أن سياسة التنمية الزراعية فى دول العالم الثالث ، لابد وأن تؤثر فى الفلاح صاحب الملكية الصغيرة ، وفى

الزراعة التى لها رأس مال مكثف . وهذا الرأى له تاريخ طويل يرتبط بالاقتصاديين الروس ، وخاصة فى الثمانينات من أواخر القرن الثمن عشر ولخصها "الكسندر تشايانوف" "(Alexander Chayanov) ١٩١٢ - ١٩٣٧" وأصبح معروفا باسم (مبادىء حزب الشعب) "Populism" ، وقد أنشىء هذا الحزب عام ١٨١٩ ، وهو يدعو إلى سيطرة الدولة على المنشآت العامة ، والحد من الملكية الخاصة ، وخاصة ملكية الأراضى الزراعية . وهو يتساءل عما اذا كان التصنيع هو الطريق الرئيسى للتنمية الإقتصادية ، ويتساءل أيضا عما أذا كان رأس المال المكثف الزراعى حقيقة مناسبا لجميع أجزاء العالم . وهذه النظرية الخاصة والنظرية الشعبية "Populist theory" توجه الاهتمام باستراتيجيات رأس المال المكثف المفروض عن طريق الحكومات ، ينظم ويخطط حياة الريفيين ومقيدا لحريتهم فى الاختيار بالنسبة لاتخاذ قرار الإنتاج . هذه القيود تدفعهم إلى مقاومة الحكومة بطرق مختلفة ، فهم يشعرون بأنهم قد استغلوا . (انظر إطار ٢ - ٨) .

إطار ٢ - ٨

الحكومات والفلاح الأجير :

فى هذا المقتطف ، يهتم "جيفن وليامز" "Gavin Williams" بأن يبين أن هناك ثورة يقوم بها الصفوة المفكرة بالمدن أو الحضر ، ويمكن أن تنتهى لصالح الفلاحين . وإذا ما حدث ذلك فإنها تهدد أسس قيام الثورة بأن تثير الرغبة لدى الفلاحين فى المعارضة وخفض إنتاج الأغذية ، وهذا ما حدث فى الإتحاد السوفيتى عقب الثورة فى عام ١٩١٧ وكما حدثت أيضا فى الدول الإفريقية ، خاصة فى اثيوبيا منذ عام ١٩٧٤ .

... إن الانتصار الثورى ربما يعطى (الطبقة البرجوازية الصغيرة) السيطرة على مؤسسات الدولة القوية ، والتى لا يستطيع غيرها إدارتها ، وينهى اعتمادها على الجماهير . ومن ثم فالحاجة تدعو إلى البعد عن استمرار هذه المؤسسات فى المركزية ... الدولة ، وعاصمتها ، والقصر الجمهورى ، والوزارات المتمركزة فى العاصمة وسلسلة السلطات . أما السياسة الاقتصادية فالأفضلية لابد وأن تعطى لمن ينتج الطعام .

وهذا لا يتحقق عن طريق إرشادات الدولة للفلاح المنتج ، وإنما يتحقق فقط عن طريق

تشجيعه ليكون البادىء ، وذلك بناء على خبرتهم ، بالإضافة إلى تحسين وجودهم المادى مع حماية مكاسبهم ضد أى متطلبات ، حتى لو كانت من قبل الحكومة الثورية .

(Williams, G. P., Taking the Part of Peasants, in Harriss, J. C., (ed.), 1982, p.381.)

ويرى "وليامز" إذا لم يستغل الفلاح فسوف يظل منتجا للطعام . وقد اتخذ البنك العالمى (الذى يقوم باقراض الكثير من مشاريع التنمية الزراعية فى دول العالم الثالث) هذا الرأى فى السنوات الأخيرة ، حيث يرى أن إقراض الفلاح والزراعة فى الغالب ، استراتيجية كفء للتنمية فى دول العالم الثالث نظرا لظروفه .

الاجتماع والتنمية والنظرية الاجتماعية :

أين يتركنا هذا ؟ يمكننا رؤية رحلة العمالة المهاجرة من خلال الضوء الجديد . وبالتحرك تجاه هذا المنظور الجديد ، نجد أن علم اجتماع التنمية نفسه قد مر خلال عمليات هائلة من التنمية . وهذا يرجع إلى أنه توقف أو أقلع عن النظرة الضيقة ، وبدأ يأخذ بعين الاعتبار التاريخ والخبرة لأناس عاديين من خلال كفاحهم من أجل البقاء وتغيير عالمهم . ولكن ظلت هناك مشاكل رئيسية كثيرة .

إن هذه المشاكل الملفتة للنظر من خلال الصفحات السابقة القليلة ، وبالرغم من دخول آراء وأفكار علم الاجتماع الماركسى من خلال نظرية النسق العالمى ونظرية التبعية ، فإن هناك نوعا من الوظيفية . فالنسق العالمى يتكون من أجزاء تجعله يعمل بطريقة خاصة تعينه على نشر وتنمية الرأسمالية .

وربما هذه الظاهرة ، هى نتاج الفكر العلمى . فإذا ما حددت النسق الخاص بك كما حدد " والرستين " فإنه بدون شكل يمكنك شرح كيفية عمله وأجزائه كلها . إنها لدائرة من النقاش ، والتى من الصعب إيجاد مخرج منها .إذ أن لها علاقة بالمشاكل فى أى علم . أما الخطر الذى تقدمه ، فهو أنه ربما ننسى هذا " النسق " . وعندما نحلل فإننا نحلل الأشياء التى نفكر فيها من الناحية البيوجرافية والتاريخية . فإذا ما نسينا ذلك ، نواجه خطر الحركة باستخدام اللغة النظرية ، والتى هى فى كثير أو قليل مفيدة ، فقولنا أن " النسق " هو

"حقيقى" عملية حسابية ، وسيئة فيما يخبرنا به عما هو صواب أو خطأ .

بالرغم من نواحى الضعف والقصور فى الوظيفية ، فإن النظرية السائدة للتنمية الاجتماعية تظل منتقدة (Critical) للظروف التى نشأ عنها الفقر ، والصعاب التى يواجهها معظم شعوب العالم ، وتحدد مصدر هذه المشاكل فى داخل الصراع من أجل الموارد بين دول العالم الأول ودول العالم الثالث وبين الجماعات داخل هذه المجتمعات العالمية .

ملخص :

فى هذا الفصل ، رأينا كيف أن الماركسية قد أثرت فى نظرية التنمية وأدت إلى عدد من التوجهات ، مؤكدة أن التنمية والتخلف هى نتيجة للتفاعل بين المجتمعات وبيئاتهم . وأن هذه النظريات قد ألقت الضوء على الامبريالية . وفى الخمس عشرة سنة الأخيرة ، كان معظم المداخل تأثيرا هما نظرية التبعية ونظرية النسق العالمى ، وكلاهما ضد نظرية التحديث . وفى داخل الماركسية التقليدية ظهرت انتقادات وآراء مضادة ، خاصة مانشره "وارن" .

الجزء الثانى

المدينة والريف

الفصل الثالث

التحضر والمدنيــة

فى هذا الفصل سوف نفحص الطرق التى حاول بها علماء الاجتماع وعلماء الانثروبولوجيا ، فهم نمو المدن (التحضر) وفهم طبيعة الحياة الاجتماعية فى المدن – المدنية – .

وبالرغم من أن الاستقرار فى المدن ، فى مختلف المجتمعات البشرية منذ خمسة آلاف عام ، فإننا نجد أن كل المدن ليست متشابهة ، وهى نتاج تأثيرات مختلفة ، ولذا نجد بوضوح أن روما القديمة ، ولندن الحديثة مختلفتان . وأحيانا لا نستطيع وصف الاختلاف بدقة .

فمثلا ، الاختلاف بين "ليجوس" فى "نيجيريا" و "باريس" ربما لا يكون من السهل وصف هذا الاختلاف .

وعندما ينظر علماء الاجتماع إلى المدن ، فإنهم يهتمون بنوعين مترابطين من المشاكل وهما :

(١) الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لنمو المدن فى أماكن بعينها .

(٢) نمط العلاقات الاجتماعية التى تميز المدن .

وإذا نظرنا إلى تلك الأفكار بتفاصيل أكثر فسوف نرى أولا وعلى وجه الخصوص المدخل الإجتماعى ، وثانيا ، كيف نتعامل فى علم اجتماع التنمية ، مع هذه المشاكل من منظورها الخاص ، بمعنى أننا إذا ما فحصنا أسباب نمو مدينة ما ، فإننا نسأل عدة تسأولات عن تاريخها ، وسيرتها ونشأتها (biography) . وربما تكون قد تعلمت من دروس الجغرافيا أن مدنا كبيرة مثل "مانشستر" قد نمت بسبب الموارد الطبيعية القريبة ، وهذه الموارد يمكن استخراجها باستخدام التكنولوجيا المتاحة ، لكى ننتج (صناعة القطن) المنسوجات القطنية . وعلى سبيل المثال ، فإن هذا النوع من التوضيح ، هو البداية التى توضحها العلوم الاجتماعية . إلا أنها تترك أسئلة بدون إجابة . مثل : لماذا أصبحت هذه الوسائل التكنولوجية متاحة ومريحة ، وتستخدم فى ذلك الوقت ؟ ولماذا كان هناك مطالب كثيرة على المنتجات القطنية ؟ ولماذا تتواجد الناس للعمل فى المحالج ؟ وماذا كان عملهم من قبل ؟ وكيف كان حثهم على التوقف عما كانوا يعملوه من قبل ؟ ... وهكذا .

وبكلمات أخرى ، ماهى التغيرات العامة والاقتصادية التى حدثت وأدت إلى إنشاء صناعة المنسوجات البريطانية فى ذلك الوقت وفى هذا المكان ؟

ماذا عن السؤال الثانى ؟ طريقة واحدة لنجيب عليه ، وهى أن نقسمه إلى جزءين ، المقياس أو المستوى الكبير والمقياس الصغير جدا .

أولا أو فى الجزء الأول يمكننا اعتبار الاستخدام الطبيعى للمساحة الفضائية ، والتى يشغلها جماعات اجتماعية مختلفة ، والجزء الثانى هو ، كيف يفسر الناس فى المدينة لأنفسهم وللآخرين ، معنى حياتهم ، وإنك هنا سوف تفكر ، وعلى وجه الخصوص فى كلمة "معنى" فى ضوء علم الاجتماع الفيبرى . تذكر تأثير مايراه "فيبر" من معتقدات الناس على حركتهم الاجتماعية "social action" فإذا ما فكرت فى مثل ذلك ، فإنها ستقودك إلى نقطة متوسطة بين استغلال المكان ومعتقدات الفرد ، وإلى الأشكال التنظيمية التى يتبناها الناس فى المدينة ، مثل منازلهم وأنديتهم والأماكن الدينية وتجمعاتهم السياسية . هذه الأوضاع الثلاثة – التاريخية والثقافية والتنظيمية تمدنا بإطار العمل للحديث عن التحضر وعلميات التنمية .

وهناك طريقتان رئيسيتان تقليديتان لهما تأثيرهما ونفوذهما . الأولى منهما تمتد جذورها إلى علم اجتماع "إميل دوركايم" و "فرديناند تونيز" ، وسوف تسترجع كلا منهما ، آخذا فى الاعتبار مشاكل القرن التاسع عشر الأساسية – وضياع أو فقدان المجتمع ، على الرغم من أن ذلك كان مشكلة القرن التاسع عشر ، إلا أنها ظلت معنا حتى الآن فى أشكال مختلفة وليست أقلهم بسبب الطريقة التى من خلالها مررنا بتجربة الآخرين (otherness) وإلى ظهور المجتمع غير محدد الهوية أو الشخصية "impersonality" ، والتى كان لها تأثيرها الكبير علينا . وبعض الناس يعتقدون (أن المشاكل الداخلية للمدينة) هى جزء ناتج عن فقد أو ضياع المجتمع . (loss of community) . إن الطريقة التقليدية لعلم الاجتماع الحضرى ، قد نمّت بناء نظرية السوفسطائية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بين العشرينات والثلاثينات ، وتعرف باسم "مدرسة شيكاغو" ، وأهم هؤلاء النظريين "لويس ويرث ١٨٨٧ – ١٩٥٢" * و "روبرت بارك ١٨٦٤ – ١٩٤٤" ، وإن أحد الأبحاث التى حازت الاهتمام ، هو البحث الذى قام به ونشر فى كتابه بواسطة "زورباغ" (F. Zorbaugh) بعنوان "ساحل الذهب والأحياء الفقيرة" "The Gold coast and the Slum" وأهم مشكلة تعرضها هذه المدرسة ، هى النظام الاجتماعى لمجتمع المهاجرين – عمليات التكامل واستيعاب الأعداد الكبيرة من الغرباء فى المدن

---

* لويس ويرث هو نفسه كان مهاجرا .

الأمريكية العظمى . إن المفهوم الأساسى المنظم لهذا المدخل هو الثقافة الفرعية للمدينة – والنسق المعرفى للمجتمعات المهاجرة والمجتمعات الطبقية فى شيكاغو وديترويت "Detroit" قد وجدت طريقها للوجود إلى جانب الأخلاقيات الاجتماعية الظاهرة للمدينة ، والتى انعكست بطريقة ما على الثقافات الفرعية المختلفة ، والطبقات التى تعيش فى أجزائها المختلفة ، وبالرغم من أن الخط الأساسى للبحث فى التحضر فى دول العالم الثالث ، ليس له جذور فى مثل هذا المجتمع التقليدى ، ولكنها تستعير بعض أفكاره ، مثل الثقافة الفرعية والهضم أو الاستيعاب "assimilation" والتكامل .

"التحضر والنظام الاجتماعى" "Urbanisation and Social Order"

هناك تأثير أو نفوذ على دراسة التحضر من "دوركايم وتونيز" . ومشاكل علم الاجتماع لا تعكس فقط الاهتمامات الأكاديمية الخالصة للباحث ، بل ترتبط بالمعنى الواسع للمشاكل الاجتماعية .

إن حكومة المدينة والناحية الإدارية تتطلبان معلومات ومعرفة عما يدور بين الناس ، حيث يوجد أناس جدد بين قاطنى المدينة ، والذين هم مسئولون عن الحفاظ على سيولة الشكل النظامى للمدينة ، والذين يطالبون بمعلومات (اجتماعية) تساعدهم على فهم وضبط المشاكل الاجتماعية للمدينة النامية .

إن بعض المظاهر السطحية للمشاكل الاجتماعية لمدينة مثل "شيكاجو" هى نفسها فى "كوالالمبور" و "وبيونس إيرس" أو "الكيبتون" .

إن هذا التشابه الظاهرى ، أدى إلى تطبيق نظرية (التحديث) والتحضر . ويمكن أن نرى هذا الجدل فى إطار ٣ – ١ .

إطار ٣ – ١

التصنيع والتحضر : (Industrialisation and urbanisation)

إن التصنيع هو لب العمليات الإقتصادية للتنمية وهو ظاهرة واضحة فى غرب أوربا وشمال أمريكا ، وهو يوضح أن التصنيع والتحضر والتنمية مرتبطة كلية . ففى الدول المتقدمة ، التحضر والتصنيع هما الواسطة " cagalysts " ، والمعبر إلى التنمية الريفية .

وقد ادى ذلك إلى تحديث الزراعة كتحسين فى الحياة الريفية ، مع ربط المناطق الريفية ، لتكون نسقا متكاملاً للإنتاج والاستهلاك مع المدن كمراكز صناعية .

وهذا الرأى يشكل ظاهرة هامة حيث تأخذ شكلاً أو افتراضا أساسيا ، وهو أن التنمية تتوافر بعيدا عن المدينة ، وأن الأماكن أو المناطق الريفية تنتظر هناك لكى تتقدم وتنمو . وهذا الرأى أو هذه النظرة تعرف بـ "dualism" أو الثنائية ، لأنها تفترض أن النسقين الاقتصادى والاجتماعى - "الحضرى والريفى المتقدم والنامى" - كل منهما يوجد بجانب الآخر ، ولابد من ربطهما معا من خلال عمليات التحضر والنمو . وهى تعكس ما يدور فى كثير من المجتمعات الاستعمارية .

هذا الرأى يوضح منظور أو مفهوم الحكام الاستعماريين . وأحد اهتمامتهم الأساسية ، وهو كيفية الحصول على عمالة كافية لاحتياجاتهم فى المصانع الحديثة . وبدون وجود هذه العمالة فى المدن التى ستصبح عاجزة عن التكيف معهم ، قد يشكل ساكنوا المدن الجدد خطرا على النظام .

إن هذه المخاوف مازالت تتردد فى دول العالم الثالث حتى الآن . وقد ظهرت بوضوح فى جنوب أفريقيا ، حيث أيدولوجية الحكومة وسيطرتها على التدفق الداخلى ، والتى أصبحت أساس سياسة التفرقة العنصرية . وترى هذه الحكومات الاستعمارية أن هجرة العمالة مشكلة اجتماعية كبيرة .

فكل من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، قد رأوا من دراستهم فى الأربعينات أن العمالة المهاجرة لابد لها من أن تتوحد ، وتستوعب فى الحياة المدنية (المدن) .

والتنمية الأساسية فى هذا المجال قد حدثت بين جماعة من علماء الاجتماع وجماعة من الأنثروبولوجيين ، وعملوا بين معهد رودس - وليفنجستون" (Rhodes - Livingstone) . وقد ركز عملهم علي نوعين من العمليات المتصلة بعمليات : تأثير العمالة المهاجرة على البيئة الاجتماعية للمجتمعات الطاردة أو المرسلة - والطرق التى يحاول بها المهاجر أن يكيف حياته فى المدن ... وفى دراسة قام بها "واطسون" لمجتمع المامبوى (Mambwe people) فى كتابه (Tribal Cohesion in a Money Economy) بحث التغيرات التى أحدثها العمال المهاجرون في مجتمع المامبوى ، وخاصة فى التنظيم الاجتماعى ، وكذلك فى المؤسسات الإنتاجية .

أما "أودرى رتشاردز" (Audrey Richards) فى دراستها لمجتمع "بمبا" (the Bemba people) فى روديسيا الشمالية الخاصة بالأرض والعمالة والتغذية .

فقد أظهرت هذه الدراسة أن اختفاء الشباب من الرجال ، من الاقتصاد المحلى ، قد أدى إلى اضمحلال فظيع فى الانتاج . وبالتالى إلى فقر فى الريف ، وإلى مجاعة (starvation) .

وفى نهاية عمليات الهجرة درس "ميشيل" (J. Cl Metchell) التنظيمات الاجتماعية للعمالة المهاجرة فى المدن . وفى مقالته الكلاسيكية : رقصة الكاليلا (The Kalela Dance) ، أظهرت الدراسة أنه بينما العمالة المهاجرة كانت تشير أو تنتسب بعضها البعض بأسماء القبائل ، نجد أن ذلك له معنى مختلف فى المدينة عما كان لديهم فى الريف .

لقد أصبحوا نوعا من الاختزال للثقافات المختلفة بين مجتمع المهاجرين ، وقدموا نماذج للتفكير أو كما يقول خرائط عقلية (Mental maps) للإختلافات الحضارية الإجتماعية . ومع ذلك فالعمالة المهاجرة تحدد نفسها مثل (بمبا) أو (مامبوى) أو (هندية) أو (باكستانية) أو (أيرلندية) ، وجميعهم عمال ، ويمكن تحليلهم باستخدام مفهوم الطبقة ، ففى إطار ٣ – ٢ يخبرنا "فالدو بونز" (Valdo Pons) أن هناك شيء مما سبق فى زمان الاستعمار البلجيكى للكونغو .

إطار ٣ – ٢

القبيلة والطبقة فى المدينة المستعمرة : زائير

فى هذا المقتطف يلخص "فالدو" (Valdo) مشكلة مفهوم التقسيم الاجتماعى ، عند دراسة التحضر فى أفريقيا . وهو يدعونا لفحص العلاقة الهامة بين القبيلة والطبقة .

ففى كتاباته عام ١٩٦٩ عن هذا البحث الذى أجراه فى الخمسينات يقول : (الأسئلة المبدئية التى تلفت نظرى هو (القبلية) و (الطبقة) فى مدينة استانليفيل ... ويمكن توضيحها ببساطة بتخيل اثنين من الملاحظين أو المراقبين ، وتصرفهم فى زيارة عادية لجيرتين مختلفتين فى المدينة . فأحدهما يلاحظ أنه أخذ إلى منطقة حيث يوجد اتجاه ملموس أو واضح لأعضاء نفس القبيلة ، فهم يعيشون إلى جوار بعضهم البعض ، وقد لاحظ أن هناك وجودا قبليا متجاوروا مع رضا ذاتى عن الحياة الاجتماعية . أما الرجل الثانى (observer)

فقد أخذ إلى جيرة حيث لم يكن يلحظ أى إشارة للإقامة العرقية وحيث يعيش كثير من الأعضاء الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة يعيشون جنبا إلى جنب فى معسكرات للإقامة ... وحتى فى بعض الأحيان ، فى مساكن أو منازل متشابهة .

وهنا كان الجميع يتحدثون باللهجة الفرنسية ، لهجة السواحلى ولينجوا . وقد رأى الناس يختلطون بعضهم البعض فى الأماكن العامة . وقد لاحظ نسبة ارتفاع الزواج المدنى ولا دخل للعشيرة فى ذلك ، وأن هناك جماعات الأصدقاء ، وهى تتجاهل الرسميات ، وتتكون من أعضاء مختلفين ، ومن قبائل مختلفة . ونجد أنفسنا نتساءل عن طبيعة هذه الإختلافات ، ونسأل كيف يعمل المبدءان الأساسيان ، القبلية والطبقة ، وكيف يعملان تلقائيا داخل نفس المجتمع .

(Pons, V., Stanleyville, Oxford University Press, 1969, pp.6 - 7.)

هذا السؤال الهام قد شرح بالنسبة لبريطانيا بواسطة كاتب آخر هو ايريك هوبزبوم (Erichobsbawm) الذى يقول : (إن جميع الطبقات العاملة فى المجتمع الواحد تميل إلى أن تكون غريبة النشأة ، ومتعددة الشخصيات ... فالخادم الهندى فى محل يعد نفسه لكى يكون عضوا فى الطبقة العاملة البريطانية ، وهذا بالنسبة للشخص الملون والهندى ... وطبقة السيخ ... والباكستانيون ... وبين هؤلاء تحدث زيجات وابناء وبنات تابعين سياسيين (Hobsbawn, E.T., Worlds of Labour, Weidenfield and Nicholson, 1984, P.49.) أما ما تحدث عنه كل من الكاتبين ، فهو عن العلاقة بين الطبقات (الموقع فى الإنتاج) ، وثقافيا (دينيا وعرقيا) كلها عوامل فى الحياة الاجتماعية . إنها مشكلة هامة لعلم الاجتماع .

إن الدراسة التقليدية لدراسة التحضر كجزء من عمل التنمية ، نجدها تركز على كيفية استيعاب وتكامل العمالة المهاجرة فى الحياة المدنية . وقد وصلنا إلى الكثير من الدراسات المفصلة ، والتى تعطينا معلومات عن المجتمع أتت من خلال هذه المدرسة البحثية . مثال ذلك ، ماكتبه "فالدو بونز" و "فليب مايرز" فى كتاب (Townsmen or Tribesmen : conservatism and the process of urbanisation in a South African city (Oxford University Press, Capetown, 1971) التى فحصت ودرست التنمية من خلال الاختلافات الاجتماعية الموجودة بين الجماعات القادمة من منطقة ريفية واحدة ، للعمل فى المدينة ، والذين

حاولوا بجهد جهيد للحفاظ على تقاليدهم بالرغم من أنهم تعلموا فى مدارس حديثة ، محاولين إعطاء الحياة طرقا مختلفة ذات معنى فى بيئة غريبة مختلفة . (أنظر إطار ٣ - ٣) .

إطار ٣ -٣

الحمر Reds والأوغاد (Rascals) والمهذب gentlemen فى جنوب افريقيا .

فى دراسة الاستقرار الريفى فى جنوب أفريقيا ، يوضح " أوكنيل" (O' Connell) فى كتابه ، كيف أحضرت العمالة المهاجرة ثقافات مختلفة للمناطق الزراعية . إنه يتحدث عن ثلاث مجموعات من الناس جميعهم من قبيلة "اكسيب" (Xesibe) ، ولكنهم يختلفون فى ثقافاتهم حسب استجابتهم لحياة المدينة .

هذه المجموعات الثلاثة أو الجماعات ، هى (الحمر ... وهم المتمسكون بالطريقة التقليدية للحياة ... ويعيشون فى اكسهوذا (Xhosa) ، ويدعون أو يسمون بالناس أو الجماعة الحمر (abantu ababomvu) ، إنهم المرجع أو الأساس للعادة التقليدية لصباغة شعورهم باللون الأحمر وكذلك ملابسهم باللون الأحمر ، ودهان أجسامهم باللون الأحمر . وهم عادة يمضون زمن طفولتهم ومراهقتهم المبكرة فى رعى القطعان من الحيوانات ، أما خبرتهم التعليمية فهى قصيرة ، ولا ينتظمون فى مدرسة إطلاقا . ويعيشون طبقا للمعايير التى تستمد جذورها من دين الأجداد ، فسلوكهم تحدد بالتقاليد ، وينعكس ذلك فى احترامهم للأبوة والسلطة ، مع اهتمام شديد فى المعيشة كجماعات ، سواء فى الحياة العادية أو وقت الحرب ، ولهم تقاليدهم وموسيقاهم ورقصاتهم التقليدية ، ويشربون البيرة (الجِعة) ، كما أن لهم تضحياته (Sacrifices) ...

"الأوغاد" (Rascal) هى ترجمة لمصطلح "iindlavini " أو شاربوا النبيذ ... فالحمر يفكرون أن المدرسة تعنى الناس المتعلمون أو الطبقة المتعلمة ، ويفكرون فى الأوغاد والمهذبين على أنهم خونة ...

فالأوغاد ينتمون إلى تنظيم يسمى ilitye (الحجر) (stone) عندما يكونون قد أمضوا العقد المبدئى للعمل ، وكلمة Ilitye ... هو تنظيم برلمانى حيث يقضى الأوغاد معظم وقتهم فى شجار مع الأوغاد من أحياء أخرى . والأوغاد ... يظهرون ويتصرفون مثل طلاب المدارس أحيانا ، ومثل التقليديين فى أحيان أخرى .

(المهتيون) "Gentlemen" هي ترجمة الاكسهوزا أماتين (Xhosa amanene) ــ فهم يستتكرون العادات المشتركة ، والخلاق واتجاهات الحمر والأوغاد ، ويرون في أنفسهم أنهم اللبقة المتحضرة بالمقارنة ــ أما حياتهم الاجتماعية فتتركز حول المدرسة والكنيسة والبارات الموجودة في المدن القريبة ، ويرجع ذلك إلى مؤهلاتهم التعليمية ، كما أن لديهم فرص الاختيار في العمل الذي يرغبون في أدائه

(O' Connell, M. C., Xesibe Reds, Rascals and Gentlemen at Home and at Work, in Mayer, p. (ed.) Black Villagers in an Industrial Society, Oxford University Press, Capetown, 1980, pp. 257 - 260.)

ومعظم هذه الدراسات استخدمت مفاهيم التكامل والاستيعاب ، لكي تفهم كيف أصبح الغرباء جزءا من حياة المجتمع الحضري السائد (أنظر إطار ٣ – ٤) .

ويتيح هذا فرصة لتقدمهم على أنهم قد فشلوا في إعطاء وزن كاف المدينة كمكان يعيش فيه المهاجرون الذين لهم آراؤهم ووجهة نظرهم في المستقبل ، ورغباتهم في متابعة اهتماماتهم .

وفي رأي "ماركس" إنهم يصنعون تاريخهم .

إطار ٣ – ٤ الاستيعاب والتكامل (Assimilation and integration)

إن مفهومي الاستيعاب والتكامل هما مفهومان هامان ، ومرتبطان بمجال علم الإجتماع . فعلم الجتماع الأجناس (Race relation) أو السلالات القرابية في المملكة المتحدة ، حيث على سبيل المثال ، نجد أن دراسة باترسون (Patterson's study) المهاجرين الكاريبيين إلى المملكة المتحدة في الخمسينات ، في كتاب صادر عام ١٩٦٣ باسم (الغرباء السمر) "Dark Strangers, Tavistock, 1963" وقد ركز أيضا على التكامل والاستيعاب . أما في الولايات المتحدة الأمريكية ، فهناك رأي آخر مرتبط بنفس المشاكل ، ويركز على ما يسميه ب (ثقافة الفقراء) المستمرة والحرمان في مدن الأكواخ (shanty towns) في كل من وسط وجنوب أمريكا .

وفي تقرير "أوسكار لويس" (Oscar Lewis) عن الحياة اليومية من يوم إلى يوم في هذه المناطق المتخلفة ، في كتابه (La Vida ASecker and Warburg, 1967) يقدم صورة مأساوية للإضطراب الاجتماعي والحرمان .

التحضر والتحديث :

إن أساس الدراسة عن المجتمع المحلى ، لم تكن محددة بوضوح فى حدود أى إطار عمل عريض للنظرية . لقد حاول "فريدمان" فى كتابه (Friedmann (Regional Development Policy : a case study of Venezuela, MIT Press, Boston, 1966) أن يجمع معا الفروض التى تساند أو تدعم هذا النمط من العمل . وقد عمل من خلال منظور التحديث الذى يوضح أربع مراحل لتطور المدينة "أنظر إطار ٣ – ٥" .

إطار ٣ – ٥ تطور المدن " Evolution of the city "
(١) الفترة الأولى فى بداية الاستعمار : كثير من المجتمعات الريفية المستقلة ، حاولت أن تساند أو تدعم نفسها بإنتاج من أجل البقاء (subsistance) . (٢) إقامة صناعات قليلة ومناجم ومزارع ذات مركز حضرى للإدارة ، مع ظهور مدن رئيسية ذات طابع اجتماعى واقتصادى إلى جانب شغلها بناء مكانى ذو إقليمية كبيرة غير متساوية فى الدخل والخدمات . (٣) انتشار المنتجات الصناعية والزراعة الحديثة ، مع ظهور المعارضة السياسية من المناطق المتمركزة حول قضايا عدم تساوى المناطق . ونشأت عن ذلك ، الحكومة المركزية ، كى تأخذ فى يدها تنمية السياسة الإقليمية ، لتعوض عدم التوازن . ومن ثم فقد حدث نمو كبير وعريض . (٤) قد نما فى المرحلة النهائية مجتمع متكامل ، ذو نمو اقتصادى ، ولم تتكر فيه عدم المساواة بين الريف أو المدينة ، ولكن ساد التكامل السياسى والثقافى .

هناك العديد من المشاكل فى نظرية "فريدمان" (Friedmann) :

(١) يقال ان التدخل الاستعمارى ، كان من أجل صالح الأهالى ، وإن المناطق ذات الكثافة السكانية القليلة ، تتميز بأنها مجتمعات على نطاق صغير ، وإنها مجتمعات لا تزال تنتظر التنمية ، مثل هذا الرأى يعكس لنا بعض ملامح الخبرة الاستعمارية ، ولكنه قطعاً لا يعكس الحالات الرئيسية – الهند – غانا وبيرو ، لا يتفق معهم فى مثل هذا الرأى ، فيما قبل الاستعمار .

(٢) إن هذا الرأى يقلل خطورة تقييم دور الاهتمام الأجنبى ، قائلين بأن الاهتمامات الإقليمية ، يمكن أن تؤثر على السياسة المركزية ، وخاصة عندما تكون هذه الاهتمامات المركزية الحضرية ، أكثر من القوة الاستعمارية الأجنبية من الناس المستعمرين .

(٣) النموذج فى الغالب نموذج سياسى ، وقد فشل فى الاعتراف بأن السياسة الإقليمية والتنمية الحضرية ، يسودها ويسيطر عليها المستعمرون ، ويليهم فى السيطرة إلى حد ما ، الصفوة (elite) القليلة من الحضريين المحليين ، والذين استفادوا من الاستعمار .

(٤) ويُنظَر إلى الفقر على أنه نتيجة للمشاكل الفنية للتوزيع ، وليست نتاج الجماعة والطبقة المسيطرة ، والتى تهدف إلى الحفاظ على الأجور بمستوى منخفض فى المدن، وتكاليف الإنتاج الزراعى فى الريف .

(٥) وربما كانت أضعف النقاط للنظرية ، هى النقاط المستمدة من نظرية التحديث عامة . والتى ترى أو تفترض أن التنمية الحضرية فى دول العالم الثالث ، سوف تتبع نفس الطريق . وكما يقال نفس ما حدث فى الدول المتقدمة .

تحليل الماركسيين للتحضر :

إن النظرة المقابلة التى استمد منها علماء الاجتماع دراساتهم عن مشاكل الحياة الحضرية ، تنبع من الماركسية ، والتى تؤكد على العلاقات الطبقية والصراع والتناقض والاستغلال .

وإذا أخذنا بهذه النظرة ، وهذه المفاهيم ، سنجد تعليلات كثيرة للنمو الحضرى والإقليمى.

إن أصل هذا المدخل البعيد يمكن اقتناؤه فى أحدى مؤلفات القرن التاسع عشر ، ومكتوبة عن التحضر فى مؤلفات "إنجلز" (Engels) ظروف الطبقة العاملة فى انجلترا (Black well, 1958) وهى دراسة عن ما نشر سنة ١٨٤٤ بمدينة مانشستر ، وفى هذه الدراسة ، يرى "إنجلز" (Engels) كيف تكون حياة الطبقة العاملة فى مدينة مانشستر فى القرن التاسع عشر ، ولابد أن تفهم فى ضوء العلاقات الآتية :

توسع التجارة والصناعة وغزو جميع الأسواق الخارجية غير المحمية ، وسرعة التوسع

فى العاصمة والثروة القومية (Engels, F., 1958, p. 15.)

هذه التغيرات قد شملت العاملين فى المدن ، فاقدة ملكيتهم الخاصة للآلات ورأس المال ، وانتقالهم إلى فقر شديد ، يناقض بوضوح الثراء الشديد الذى يخلقونه .

إن الفقر الحضرى عند "إنجلز" (Engels) يرجع إلى مظهر واحد ، هو العلاقات الشاملة بين الطبقات أثناء فترة التنمية الرأسمالية .

إن الصورة التى يرسمها لظروف الطبقة العاملة ، تشبه إلى حد كبير تقرير عن الحياة فى مدن الأكواخ ، أو العيش فى دول العالم الثالث الآن . (أنظر إطار ٣ – ٦) فيقول :

إن الغالبية العظمى لدى سكان المدن الكبيرة هى العمال ... فالعمال لا يملكون أى ثروة ، والجميع يكدحون فى طلب لقمة العيش . وانحدر المجتمع ، وتكون من مجموعة متدهورة من الأفراد الأنانيين ، ولا أحد يهتم بالعمال وأسرهم ... وإن أكفأ العمال مهددون دائما بفقد حياتهم، وهذا يعنى بالموت جوعا ...

إن القطاع السكانى الذى تعيش فيه الطبقة العاملة ، دائما ماينشأ بشكل سىء فى المدن ، إذ أن مبانيها أو منازلهم قد أقيمت بأقل التكاليف ، وبحالة سيئة لا يرجى من إصلاحها. كما أن هذه المبانى سيئة التهوية ورطبة وغير صحية ... أما لباس العمال ، فإنه غير كاف لستر أجسامهم ، بل يخيل للمرء أن ثيابهم مهلهلة . ووجبات العمال دائما غير مفيدة للجسم ، وغير صالحة للأكل . (Engels, F., 1958, pp. 86 - 87) .

إطار ٣ – ٦ "الاسميرالدا" ، "بورتوريكو" (La Esmeralda, Puerto Rico)

هناك مصطلحات كثيرة تطلق على الأحياء الفقيرة (slums) والتى يسكنها الفقراء فى دول العالم الثالث . وإفريقيا تسمى مدن الأكواخ (shanty towns) ، أما فى السودان فإنها تسمى مدن الكارتون (cardboard cities) وفى أمريكا اللاتينية تسمى (favelas) . وفى شمال افريقيا تسمى مدن الصفيح ، وفى الهند (bustees) ويصف إحداها "أوسكار لويس" "Oscar Lewis" فيقول :

مع أن حى "الاسميرالدا" (La Esmeralda) يبعد فقط عشرة دقائق من قصر الحاكم فى قلب "سان جوان" (San Juan) إلا أنك تلمس انها اجتماعيا على الهامش للمدينة . وهناك حائط يقف فاصلا بينها وبين المدينة ... وبين البحر ، فالمبانى رثه قديمة ، والسكان فى حالة سيئة ، إلى أن تصل إلى الشاطىء نفسه فنجد الناس يعيشون فى مبان خربة .

ولكى تعيش على الشاطىء ، فإنك دائما معرض للخطر ، حيث يمكن أن يجرف المد المنازل ، إلى جانب أنه أقذر مكان فى الاسميرالدا .

وهناك كابلات الكهرباء المحطمة ، إلى جانب المجارى المتجهة إلى البحر . ويعج الشاطىء بالذباب والقانورات والزبالة ، والفضلات الآدمية ، وزجاجات البيرة والأسرة المحطمة وقطع من الحشب العفنة ...

ومع ذلك فإن سكان أسميرالدا يستخدمون الشاطىء للاستحمام والمعاشرة الجنسية والصيد ، وعند الجوع يجمعون القواقع والكابوريا . كما يربون الخنازير على الشاطىء بسبب وفرة الزبالة .

(Lewis, O., La vida, Secker and Warburg, 1967, p. 37.)

ويناقض هذا الموقف الوصف الحالم لريف ما قبل التصنيع فى القرن التاسع عشر ، فيصف "إنجلز" (Engels) قائلا : الزوجات والبنات يغزلن الصوف ، الذى يقوم بنسجه الرجال، أو يبيعونه لمن ينسجه . ومعظم عائلات النساجين ، يعيشون فى الريف ، بالقرب من المدن ويكتسبون الكثير الذى يكفى لمعيشتهم . وفى تلك الأيام فإن الطلب من السوق المحلى على الملابس كان منتظما ومرضيا . (Engels, F., 1958, p. 9) إن النظريات الماركسية الحديثة عن التحضر (unbanisation) تتبنى مشكلة البناء العريض أو الواسع (The broad structural) لفهم المدينة فى العالم الثالث ، ناظرين إليها على أنها تابعة تنمويا ومتخلفة .

فالهجرة الزراعية إلى المدن هى نتاج سياسة القوى الاستعمارية ، وتهدف إلى نقل العمالة الريفية الرخيصة إلى المناطق الحضرية ، وغالبا من خلال الإكراه والقوة . والوسائل المتبعة هى العمل الإجبارى والضرائب على المنازل والرأس ، والتى لابد من دفعها نقدا . والنقد الفورى يتأتى عن طريق بيع إنتاج المحاصيل نقدا ، والعمل فى مزارع المستوطنين (كما هو متبع في وسط وجنوب إفريقيا وأجزاء فى أمريكا اللاتينية) أو العمل فى المناجم أو المدن

الصناعية . والخط الدفين السائد فى عملية التحضر ، هو استمرار حاجة الرأسمالية إلى تزايد أو تراكم رأس المال .

وهذا انعكاس للتنظيم المكانى للمدينة ، بمركزها الغنى ، وعلى الطرف الآخر توجد مدن الأكواخ . وتختلف الدخول فى المناطق على نفس النمط الموجود بين المدينة والريف ، وهو نتاج للشكل غير المنتظم للتنمية الرأسمالية فى دول العالم الثالث .

ويزودنا "كاستيل" (E.Castells (The Vrrban Question: a Marxist Approach, Edward Arnold, 1977) بنموذج على النقيض لنموذج "فريدمان" (Friedmann) ، فهو يرى أنه هناك ثلاث مراحل فى عملية التحضر فى دول العالم الثالث . (انظر إطار ٣ – ٧) .

إطار ٣ – ٧

نموذج للتحضر فى دول العالم الثالث

(A model of Third World urbanisation) كاستل (Castell) والثلاث مراحل :

(١) إن فائض الإنتاج فى فترة الحكم الاستعمارى كان يباع وينقل عن طريق شركات أجنبية ، تخضع للنفوذ السياسى ، ولسياسة الاستعمار والاقتصاد الوطنى .

وعلى سبيل المثال : التحيز ضد الصناعات المحلية فى صالح المنتجات التى تقدمها الصناعات فى المجتمعات المستعمرة . وخير مثال على ذلك ، دمار صناعة النسيج فى الهند خلال فترة الاستعمار .

(٢) فى حالة استقلال البلد سياسيا ، فإن فائض الإنتاج دائما ما يؤخذ من خلال ميزان تجارى غير متكافىء ، حيث يسيطر على الأسعار شركات أجنبية تسيطر على الصادر والوارد ، وتستغل التجارة لصالحها .

(٣) المرحلة الأخيرة هى فترة الاحتكار الصناعى ، والسيطرة الاقتصادية حيث توجد شركات متعددة الجنسيات ، وبعضها لها ميزانيات أكبر من الدولة نفسها التى تعمل بها ، فتسيطر على نطاق واسع فى مجال الصناعة والقطاعات الزراعية ، والتى ربما تكون قد كونت شبكة من خلال شركات فرعية يمتلكها حاملو أسهم محليون ، أو من خلال البنوك ، أو من خلال ترتيبات مالية أخرى ، أو ممن خلال إجراءات داخلية مثل نقل أو تحريك الأسعار .

وفى هذه المرحلة ، فإن الفائض يستخرج عن طريق إعادة الربح ، ودفع الضريبة أو التراخيص الحكومية .

وإذا مانظرنا إلى المجتمع الحضرى من هذا المنظور ، نجد أن المشكلة ليست مسألة "توافق" أو "استيعاب" أو "تكامل" . وإنما هى عبارة عن العلاقة بين الطبقات والسياسة الطبقية فى البيئة الحضرية . ومن خلال هذه النظرية ، نرى المشكلات الاجتماعية كالفقر وعدم تكافؤ الرعاية الصحية ، والتغذية السيئة والإسكان السىء هى مظهر العلاقات بين الطبقات ، وهى القضايا التى تتصارع عليها الطبقات وتكون المعارك السياسية .

هل يستبعد الناس النظرية ؟ .

إن تفسير الماركسيين للحياة الاجتماعية الحضرية والتحضر ينتقد على أنه تغالى فى الحتمية أو العوامل المسيطرة . وهذا يعنى أنه لا يعطى الوزن الكافى أو ينقص من قيمة سكان المدن لكى يستقلوا ويعبروا عن طاقاتهم . بينما يرى مدخل التحديث (modernisation approach) أن الحكومات ، (سواء كانت مستعمرة أو مستقلة ، وبالرغم من أنها قد تكون غير كفء فنيا) ، يرى أن الحكومات تهتم بما يهم الطبقة ، ولا تهتم بما يهم الطبقات العريضة الفقيرة فى الريف والحضر .

وهناك خط متوازى مع الأجزاء الخاصة بالنظرية الماركسية . ويمكن أن تتذكر ذلك فى المقتطف السابق ذكره "لأنجلز" ، الذى رأى أن المجتمع الحضرى هو عبارة - "يتكون من مجموعة من الأفراد الأنانيين" - إنه مظهر للاغتراب ، وهو المفهوم الذى استخدمه "ماركس" و"أنجلز" لوصف بعض مظاهر السلبيات فى المجتمع ، واختفاء القيم الاخلاقية مع نمو المجتمع الصناعى الحضرى . إلا أن " دوركاييم " قد استخدم المفهوم "أنومى" (Anomie) "أو الشاذ أو المخالف للقاعدة" ليصف نفس الظاهرة . ولكن ماهو مهم فى هذه الملحوظات ، هو ما يقال عن سلبية وعدم فاعلية المناطق الحضرية الفقيرة .

ولكن يبدو أن هذه ليست القضية . ففى انجلترا ، عندما كتب "أنجلز" عن الطبقة الإنجليزية العاملة :

(E. P. Thompson in his The Making of the English Working Class (Penguin, 1978) .

فقال : نرى فى إنجلترا كيف كانت الطبقة العاملة تأخذ المبادرة فى الناحية الثقافية والتعليمية والمالية (من خلال تبادل المساعدات عن طريق المؤسسات) وكذلك من خلال السياسة

(وذلك عن طريق وجود الغرف التجارية) جميعها كانت تهدف إلى تحسين الكثير . وإن كثيرا ما يحدث نفس الشيء ويصدق في المدن الفقيرة في دول العالم الثالث . وهناك الكثير من (المؤسسات التطوعية) ، والكنائس والنوادى الاجتماعية وخاصة من أعضاء رودس (Rhodes) - ولفنجستون (Livingstone) فالمؤسسات على سبيل المثال تساعد على التوافق مع حياة المدينة الجديدة ، والجميع ينظر إليها على أنها أشكال من التنظيمات فى الظروف المناسبة ، وربما تستمر وتصبح قوة سياسية ذات مغزى .

إن هذا الرأى له وزنه أو يتعرض له "بونز" (Pons) ، وقد وجد كثيرا من الاهتمام به ولمختلف أنواع النوادى ، التى تكونت فى المدن الأفريقية . إن فى مقدمة الكتاب الذى يعالج كيفية تحضر الناس ، وكيفية استيعاب هذا المفهوم وقياسه ، نجد صورة رائعة، فهو يعرض أو يظهر صورة أعضاء لجنة (رابطة المتعلمين الكنغوليين) ومعهم رئيس اللجنة الأوربى . ويشار إلى هؤلاء الناس بأنهم (ثمرة التطور) ، وهم الذين تطوروا ثقافيا بمستوى يسمح لهم بتقييد الزيادة فى المجتمع المستعمر ، عن طريق بلجيكا . وعلى يمين الصورة نرى "باترس لومميا" (Patrice Lumumba) الذى أصبح رئيس الجمهورية الكنغولية المستقلة .

الطبقة والثقافة فى مدن العالم الثالث

إطار ٣ - ٨

التحضر فى الدول المتقدمة (Urbanisation in the developing world)

نجد أن معظم الناس فى الدول المتقدمة ، يسكنون المناطق الحضرية . وفى عام ١٩٢٠ كانت النسب التالية منهم فى إفريقيا ٨ . ٤٪ من السكان و ٧ . ٥٪ فى جنوب شرق آسيا ، و٢ر٧٪ فى شرق آسيا ، ونسبة ٤ . ١٤٪ فى أمريكا الجنوبية . وكان عدد الناس يبلغ حوالى ٢٠ ألفا من المواطنين أو أكثر فى الحى . ثم زادت هذه النسب عام ١٩٥٧ على الترتيب ١ر١٨٪ ، ٤ر١٧٪ ، ٦ . ٢٣٪ ، ٥ . ٤٠٪ .

وهناك خاصتان تستحق الانتباه . فهناك أولا اختلافات كبيرة بين الأقطار الصغيرة وبين قارات العالم المتحضر من حيث النسب ومدى التحضر . وثانيا أن ازدياد التحضر كان بشكل مستمر ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، إلا أنه كان تزايد فى معظم الدول عقب الحرب العالمية الثانية .

(Roberts, B., Cities in Developing Societies, in shanin, T. and Alavi, H. (eds.), Introduction to the Sociology of Developing Societies, Macmillan, 1982, p. 367.)

مدينة مكسيكو (Mexico City) هى إحدى أكبر المدن ازدحاما فى دول العالم الثالث ، وربما كانت الأكبر لأن تعداد سكانها كان حوالى ١٦ مليونا ، وقد يصل إلى ٢٥ مليونا تقريبا فى نهاية هذا القرن . وأصبحت الهجرة الآن إلى مثل هذه المدن فى تناقص . ويمكن لنا القول بأن نسبة ٣٠٪ من سكان دول العالم الثالث يسكنون المدن ، وربما لا نتوقع زيادة فى هذه النسبة قبل منتصف القرن التالى .

إن المصدر الرئيسى لزيادة سكان الحضر ، إنما يأتى من داخل المدن . فالنسبة ٣٠٪ على الأقل من الأماكن ، تعد ذات أهمية . أما السرعة والحركة فى المدن ، تزيد من سرعة انتشار الأفكار ، حيث تنتقل الشائعات ، ويخرج السكان إلى الشارع فتقع الإطاحة بالحكومات (أنظر إطار ٣ – ٩) .

إطار ٣ –٩ أسعار الطعام ومشاكل المدنية (food prices and urban riots)

لقد أطاحت الجماهير بحكومة السودان فى ابريل عام ١٩٨٥ . وامتلأت شوارع الخرطوم والمدن المجاورة لها بالمتظاهرين من جميع قطاعات المجتمع ، فمنهم مدنيون ومدرسون إلى عمال اليومية ، وكان منهم الأطباء . ورفض البوليس من ضباط وعساكر إطلاق النار على المتظاهرين . والشرارة التى انطلقت وسببت كل هذا ، هى ارتفاع سعر الخبز ، لأن الجهات التى كانت تقرض الحكومة السودانية طالبتها رفع الدعم عن رغيف الخبز .

وليس هذا مثالا فريدا ، بل كانت هناك مظاهرات مشابهة ، ولنفس السبب حدثت فى مصر وتونس والمغرب فى السنوات الأخيرة . ودائما ما كان سكان المدن تدخل فى مواجهة مع الحكومة . وإذا كنت تعيش فى المدينة ، فإنك تعتمد دائما على السوق كلية فى دخلك وطعامك ومأواك . فمثلا عندما ارتفعت الأسعار فى السودان ، كانت هناك الاضطرابات ، وردود الفعل الحادة والعنف الواضح للتعبير عن عدم الرضا .

إلى أى مدى يمكن أن ننظر إلى هذه الأحداث على أنها "أحداث طبقية" ؟ (class action) لقد رأينا أن الناس فى المدن يعيشون العديد من أنواع التطابق أو الاندماج العاطفى

(انظر إطار ٣ - ٢) والطبقة إحداها . ومن خلال الاجتماع الماركسي ، نرى أن الطبقة ينظر إليها على أنها العلاقة بين وسائل الإنتاج . فالناس مقسمون إلى البروليتاريا "أو الطبقة العاملة " والبرجوازية "أي أصحاب المصالح المادية" والموظف أو المستخدم (employed) والمستخدمين . أما في دول العالم الثالث فمن الصعب الحصول على وظيفة رسمية في مصنع أو منجم أو مكتب ، كما سنشاهد في الفصل الرابع .

إن مدن العالم الثالث تختلف عن مثيلاتها في أوربا وأمريكا الشمالية ، بأنها لا تقوم على تنمية صناعية واسعة . إن كثيرا من الناس يمضون حياتهم في وظائف عادية في قطاع الخدمات ، ويعملون بقدر استطاعتهم كالآلات ، وينظفون الأحذية ويغسلون السيارات ، ويبيعون سجائر ، وشحاذين أحيانا وبائعات هوى (أي في الدعارة) . وهذا النوع من الاستخدام / والبطالة يسمى "قطاع غير رسمي" . وفكرة القطاع غير الرسمي مشروحة في إطار ٣ - ١٠ .

إطار ٣ - ١٠

القطاعات الرسمية وغير الرسمية في كينيا

(formal and informal sectors in Kenya)

لقد درس "جون ويكس" (John Weeks) القطاعات غير الرسمية في كينيا في السبعينات . وهو يكتب عنها كما لو كانت كلها مكونة من الرجال ، ولكن في الواقع كان هناك نساءاً كثيرات ، يعملن فيها لدعم أسرهن ، وهو في كتابته يقدم وصفا واضحا . "إن الأساس في هذا الانقسام الرسمي وغير الرسمي ، يرجع إلى علاقات النشاط الاقتصادي للدولة . والقطاع الرسمي هو ما يسمى بالحديث "modern" ، ويشمل أصحاب رءوس الأموال والمشاريع والمؤسسات ، ورجال الأعمال الرأسماليون يتبعون القطاع الرسمي على أوسع نطاق ، ويستخدمون رأس المال المكثف والآلات المستوردة ، ويعتمدون على نظام العمال أصحاب الأجر اليومي . أما القطاع غير الرسمي فهو صغير ويستخدم العمالة المتوفرة والمكدسة والوسائل المحلية ، ويقوم على أساس العمالة الأسرية والعملاء والعمال ذوي الحرف ... ومن خلال الضرائب والحصص تحمي الدول المنتجين لبضائع معينة من المنافسة الأجنبية ... وقد يوصف القطاع غير الرسمي في كينيا بأكثر من ... غياب من تفضلهم الدولة . وفي كثير

من الأحيان تتعرض للاضطهاد وعدم التشجيع . وعلى سبيل المثال ، فإن النجار الصغير غير قادر على التوسع لعجزه المادى ، وعدم وجود قروض ميسرة ، أو تبادل مع الخارج ، وعدم وجود الخبرة الفنية . وربما يكون أيضا غير قادر على استخراج تصريح للعمل ، ويعمل منتظرا البوليس يغلق له دكانه فى أى لحظة ، وإذا ما طلب قرضا من الحكومة ، فربما يتأخر شهورا فى استلامه ، لان مستويات العمالة والقروض قائمة على التخصصات الموجودة فى انجلترا ، وبعد جهود كبيرة تعطى الآلات والتدريب .

(Weeks, J., Imbalance and the "Employment Crisis" in Kenya, in Oxaal, I., Barnett, T., and Booth, D., Beyond the Sociology of Developmnt, Routledge and Kegan Paul, 1975, p. 89 .)

وفى بعض دوائر أو فترات التخطيط (planning circles) ، لم يكن القطاع غير الرسمى كمشكلة ولكن كإمكانية . فيجب على الملتزمين الالتزام بالمواهب التى تقدرها السياسة الحكيمة ، فتشجع الناس على الإسهام فى التنمية . ومن الناحية الأخرى ، فإن المفهوم قد تعرض كثيرا للنقد على أنه عام للغاية ، لأن هناك نقط غامضة تخص الاختلافات الكبيرة ، وعلى سبيل المثال ، مركز المتسولين وقطاع الحرفيين الصغار . وقد لوحظ أيضا وجود العمالة المختلطة فى القطاع غير الرسمى ، فهناك أناس يؤدون أعمالاً مختلفة فى أوقات مختلفة فى اليوم الواحد وفى الأسبوع وفى الشهر أو فى السنة ، وليست مقصورة على مدن . فهى توجد أيضا فى المجتمعات الريفية .(أنظر قراءة ١ ، جزء ٩) .

ومن اتجاه آخر ، وجد أن المصطلح يخفى وجود العلاقات الطبيعية بين الطبقات ، وأن القطاع غير الرسمى هو المكان الذى يتواجد فيه العمال الرخيصة غير المستخدمة ، وبعض الحرفيين (وينتقل بعض الناس أحيانا من حرفة لأخرى) والتى تواجه قوى الشركات الكبيرة والدولة .

وهذا يعيدنا مرة ثانية إلى السؤال عن كيف وإلى أى مدى نستطيع أن نتحدث عن الطبقات والحركة الطبقية فى مدن العالم الثالث : إننى اعتقد أنه من الصعب التعميم ، ففى بعض الأحيان يتحد الناس للدفاع عن مصالحهم كطبقة ، وربما يأخذ هذا شكل الإتحادات التجارية أو الاشتراك فى الإضرابات . وعندما يحدث ذلك ، وتتوحد الطبقة وتتحد مع طوائف أخرى أو ثقافات فرعية ، فإنه من الصعب التكهن به . وكما رأينا فى حالة اضطرابات الطعام

(إطار ٣ – ٩) فإنه دائما يحدث ، ودائما تركز على الدولة كما اقترح "ويكز" (Weeks) فى إطار (٣ – ١٠) فغالبا تكون منحازة ضد فقراء المدينة ، ويمكن وصفها فى إطار (٣ – ١١) .

إطار ٣ – ١١

يقظة الطبقة فى مدينة أجيج بنيجيريا (class consciousness in Agege : Nigeria)

درس "أدريان بيس" (Adrian Peace) جماعة من عمال المصانع فى مدينة أجيج (Agege) وهى ضاحية صناعية لمدينة "لاجوس" (Lagos) فيقول : إن جميع العمال دائما يتذمرون ضد الرفاهية والثروة التى تمتلكها القلة بالمقارنة لحالة الفقر التى يعيشونها ... ومن المتوقع فى بعض أوقات الصراعات الصناعية والسياسية أن يبدو الظلم واضحا وكثيرا ويبدو كذلك عدم المساواة ، فيصبح الأساس الرئيسى والذى يبرر تحدى العمال للسلطة ودوائر الحكومة ، وتتولد العداوة ضد النظام السياسى ، وتنتشر بين المستغلين فى العمل ، والذين يوكونون الأغلبية فى مدينة مثل "أجيج" (Agege) ، وبين عمال المصانع يتواجد زملاؤهم من المدينة ، وحائكوا الملابس وصغار التجار والحدادون والميكانيكيون والسائقون والنجارون . والمرء دائما يواجه تقييما عدائيا كى ترتكز الثروة الطائلة والقوة فى أيدى أقلية متميز .

(Peace, A. choice, Class and Conflict, Harvester Press, 1979.)

وهناك عامل مهم يمنع تنمية الطبقة فى دول العالم الثالث ، أن أهل المدن يحتفظون بعلاقة وثيقة مع المناطق الريفية ، ولقد رأينا شيئا من ذلك مع الحمر . والمهذبين (إطار ٣ –٣) حيث يجمع كثير من الرجال بين الوظيفة فى المدينة والحياة فى الريف . وهذا واضحا فى جنوب افريقيا من خلال نظام التفرقة العنصرية . ولكن فى أماكن أخرى ربما يمضى الناس جزء من السنة أو عدة سنوات فى المدينة وفى كلتا الحالتين فإن هجرتهم عملية معقدة والتى تربط المدينة بالريف فى كثير من الطرق من الناحية الاقتصادية والثقافية ، وسف نوضح ذلك فى الفصل الخامس حيث نوجه اهتمامنا إلى التصنيع فى دول العالم الثالث .

الفصل الرابــع

التصنيع

علم الاجتماع والتصنيع :

لقد رأينا فى الفصل الأول أن الصناعة هى إحدى المشكلات الأساسية لعلم الاجتماع ، وإنها تحظى باهتمام علم اجتماع التنمية . وهناك كثير من الانقسامات أو التفريعات ، أزواج من التناقضات أو التضادات ، والتى توجد فى محاولة الكتابة لعلم الاجتماع لوصف الحدود بين الصناعة والمجتمعات قبل الصناعية . ومن الكتّاب من علماء الاجتماع من كتب عن المجتمع قبل الصناعى مثل "هنرى مين" (Henry Maine) (١٨٢٢ - ١٨٨٨) ، ومن خــلال "دوركــايم" و "تونيز" إلى كتّاب أكثر حداثة مثل "ردفيلد" (١٨٩٧ - ١٩٥٨) و "إتزايونى" و "أيزنســتاد" (فى كتاباتهم فى الستينات والسبعينات) من القرن الحالى ، حيث كانت محاولاتهم لوصف سمات المجتمع الصناعى والعمليات التى من خلالها يحدث الانتقال من مجتمع ما قبل الصناعة إلى مجتمع صناعى .

وفى حالات كثيرة نجد أن السمات التى قيلت لتصف مجتمع ما قبل الصناعة ، كانت قائمة على الغموض والمعتقدات بأنها تقوم على البحث والدراسة التاريخية العلمية . وبنفس الطريقة ، حددت صفات بعينها كمقاييس هامة للمجتمع الصناعى . أما المجتمعات الحديثة هى مجموعات منتقاة . وإحدى هذه السمات هى التميز بين الدول المتقدمة عن الدول المتخلفة . وهو تواجدها - التصنيع - فى الأولى وغيابها فى الأخيرة . وهذا يستدعى أن نكون أكثر وضوحا فيما نعنيه بالتصنيع (انظر إطار ٤ - ١) .

الصناعة والمجتمعات الصناعية :

إطار ٤ - ١ التصنيع :

"إن مصطلح التصنيع يعنى الإشارة إلى مظهر للتنمية الاقتصادية ، حيث يتبادل كل من مصادر رأس المال والعمل ، والتحول من الأنشطة الزراعية إلى الأنشطة الصناعية ، وخاصة القائمة على التصنيع الآلى . وقد صاحب ذلك نهضة فى النسق الصناعى ، كما لازم ذلك

زيادة فى التحضر والحركة والهجرة من الريف . وهذا الوصف لطبيعة العملية نجده فى :

(Industrial and Deindustrialisation, John cornwall, in The social Science Encyclopaedia, Kuper, A. and J., (eds.), Routledge and Kegan Paul, 1985 P.386.)

بالاضافة إلى ذلك هناك سمة هامة للإنتاج الصناعى ، هى تقسيم العمل والنظام الذى يفرض نفسه على العمل ، وقد استخدم "آدم سميث" (Adam Smith) رائد الاقتصاد (١٧٢٣– ١٧٩٠) فى القرن الثامن عشر ، حيث استخدم نموذج صناعة الدبوس ليوضح فكرته ...

إن الطريقة التى بها ينفذ هذا العمل طريقة تجارية غريبة ، فلا يؤدى العمل ككل ، ولكنها تقسم إلى عدد من الفروع ... فهناك عند صناعة الدبوس من يسحب السلك وآخر يفرده وثالث يقطعه ورابع يدببه وخامس يعد رأسه ... ثم يوضع فى الورق ، إن تجارة الدبابيس تشبه هذه الطريقة ، فهى مقسمة إلى حوالى ثمانى عشرة عملية واضحة ... فكل شخص ... يؤدى عشرة أجزاء فى حوالى ٤٨٠٠٠ دبوس ، أى أن الشخص وحده ينتج حوالى ٤٨٠٠ دبوس فى اليوم . ولكنها إذا أتمت منفردة ومستقلة وبدون توجيهها إلى هذا العمل الغريب والمعقد ، فسوف لا ينتج أى شخص منهم أكثر من ٢٠ دبوسا فى اليوم .

(Smith, A. The Wealth of Nations, Penguin, 1973, first published 1773)

وفوق كل ذلك ، يجب أن نلاحظ أن التصنيع يأخذ الإنتاج من البيت إلى المصنع .

إن كل المجتمعات البشرية تنتج أشياء من أجل استخدامها ، ولديها الحرفيون والعمال المهرة المتخصصون . إلا أننا لا نستطيع الإشارة إليهم على أنهم عمال الصناعات ، كما أن مجتمعاتهم لا يمكن أن نسميها صناعية . ومن الجانب الآخر فحتى المجتمعات الغربية ، ومجتمع الإتحاد السوفيتى وأمريكا الشمالية فجميعها ليست مجتمعات صناعية ، إذ أن هناك قطاعات زراعية هامة وكبيرة . ويمكن مقارنة الإنتاج الصناعى بالإنتاج الحرفى ، فى ضوء المصطلحات الخاصة بهذا المستوى . فاستخدام الأعداد الكبيرة من العمال واستخدام الآلات ، نتيجتها عبارة عن تركيز جغرافى وانتاج للأسواق الكبيرة .

لاحظ أن هذه السمات بعد الانتاج الزراعى (كالميكنة الزراعية والمزارع الكبرى) يمكن اعتبارها انتاج صناعى . ولكى نحدد مستوى المجتمع الصناعى ، يمكن لنا أن نسأل عن مصدر الدخل القومى الناتج عن الانشطة الصناعية .

ولقد وضعت الأمم المتحدة جدولا يحدد المستوى العالمى للتصنيف الزراعى ، وبناء عليه تحدد مستوى المجتمعات الصناعية (انظر إطار ٤ – ٢)

إطار ٤ – ٢ المستوى العالمى للتصنيف الصناعى

١ – الزراعة : الزراعة
الصيد
استغلال الغابات
صيد الأسماك

٢ – الصناعة : التعدين والمحاجر
التصنيع
الكهرباء
الغاز
المياه
البناء

٣ – الخدمات : تجارة الجملة والتجزئة .
المطاعم والفنادق .
النقل والتخزين والمواصلات
التمويل والتأمين والملكيات الحقيقية والأعمال الحرة .
المجتمع والخدمات الإجتماعية .

إن التصنيفات الواردة فى إطار ٤ – ٢ ليست واضحة . وعلى سبيل المثال ، ربما نعتقد أن العمليات الخاصة بالمنتجات الزراعية ، يجب أن تدخل فى الزراعة أو خزانة الإنتاج الصناعى . ويتوقف هذا على كيف تحدد أو تعرف المجتمع الصناعى . (انظر إطار ٤ – ٣) .

إطار ٤ - ٣ المجتمع الصناعى : تعريف

من أجل أهدافنا ، فإن السمة الرئيسية للمجتمع الصناعى تبدو أنها النمط التكنولوجى المستخدم فى الإنتاج ، والمقياس أو المستوى للتنظيم العمالى وعلاقته بالتكنولوجيا ، ومدى التخصص وتقسميات العمل بين الأجزاء المختلفة لعمليات الإنتاج .

إن ظهور هذه السمات للتصنيع والمجتمع الصناعى أدى إلى تغيرات عامة فى التنظيم الاجتماعى - إن هذا التغير الذى أشار إليه "تونيز" (Tonnies) فى توضيحه بين "جيمينشافت" أى المجتمع البدائى أو البسيط و "جيزلشافت" (Gemeinschaft and Gesellschaft) أى المجتمع المعقد أو المتقدم "ودوركايم" (Durkheim) فى توضيحه الفرق بين التضامن العضوى والميكانيكى ، كانوا يحاولون جذب الانتباه إلى هذه الظاهرة . إن هؤلاء الكتّاب ، ما أشاروا فقط إلى التغيرات الفنية والتكنولوجية بل وفوق كل شىء أشاروا إلى التغيرات التى اتبعها الناس فى رؤيتهم لأنفسهم ورؤية الآخرين ، وهو تغير فى الإطار الأيدولوجى ، أو إذا أردت أن تستخدم مصطلح "فيبر" (Weber) "معنى الموقف" أو بكلمات أخرى ، التغيرات الثقافية . حقا إن مبررات "فيبر" عن العلاقة بين تنمية معتقدات البروتستانت وأراء المجتمع الرأسمالى ، يشير إلى التغير فى الاتجاهات وتوقعات الناس فى المجتمعات الصناعية .

وقد لاحظ "فيبر" (Weber) أن الرأسمالية تتطلب وتشجع وتعمل أفضل إذا ساد الاعتقاد فى التخطيط والكفاءة والمهارة فى الحسابات على وجه الخصوص ، وعندما يحاول الناس التعليل للإمكانيات فى المستقبل وتأثيرها على الأحداث الحاضرة .

ولذلك نجد أنه من المتوقع أن اقتصاد بلد مثل زامبيا ، يكون اقتصادها ودخلها القومى مستمدا من القطاع الصناعى - طبقا لتصنيف الأمم المتحدة - وعلى خلاف ذلك إذا ما تحدثنا بلغة علم الاجتماع ، فهى إلى الآن لا تعتبر مجتمعا صناعيا لأن غالبية الشعب لم تمارس تجربة الانتقال الأيديولوجى . وفى الواقع فهى كغيرها من الفئات الاجتماعية الكثيرة .

ونحن هنا مهتمون بأسئلة ذات أهمية بالدرجة التى يتميز بها أى مجتمع من سيادة الأنماط الصناعية المنتجة ، والمعتقدات ، ونوعية العلاقات .

وهناك سمات للمجتمع الصناعى ، وهى صفات المجتمع الحضرى . وبالرغم من أنها ليست قاصرة على المجتمع الحضرى . فالزراعة يمكن أن تنظم على أنها صناعة بتقسيم العمالة والعمل على نطاق واسع والعمال الأجراء والمديرين .

ونحن لدينا مصطلح يستخدم يوميا فى الحديث عندما نتحدث عن لغة "المصانع الزراعية" أو التصنيع الزراعى . (أنظر إطار ٤ - ٤ كمثال على التصنيع الزراعى) كما نلاحظ أيضا وجود أنماط للقياس والتى تستخدم لوصف "المجتمع الصناعى" وليست قاصرة على واحدة فقط ولم يكن من الضرورى أن يتغير الجميع فى نفس الإتجاه أو نفس المعدل .

إطار ٤ - ٤ مزرعة جماعية فى الاتحاد السوفيتى

لقد درست "كارولين همفرى" (Caroline Humphrey) مزرعة شاملة نائية وسط إقليم أسيوى فى الإتحاد السوفيتى ، قرب حدود منغوليا .

وفى هذه الخلاصة ، نستطيع أن نرى الجانب الإدارى للمزرعة يشبه المصنع إلى حد كبير

إن مزرعة "كارل ماركس" (Karl Marx Kolkhoz) وهى مزرعة تعاونية فى مقاطعة سيلينيا (selenya) فى عام ١٩٦٧ هى "مقاطعة إنتاج" ... وعمل رئيس القرية يختص بكل من الإنتاج والإدارة . وهو مسئول عن نظام العمل ، ويسمح بالسفر ، والإجازات المرضية والتأمين والمعاشات واستمرار قيام العمال بالعمل أو فصلهم ، والأمانة ونوعية عملهم ، كل هذا إلى جانب الإنتاج المباشر والأنشطة الموجهة للإنتاج ، والنقود للقروض المختلفة ، وتحصيل الدخول وتنفيذ خطة التوزيع للولاية أو الدولة ، وتوزيع الآلات والعمال للفرق أو الجماعات ، وهكذا " ...

(Humphrey, C., Karl Marx Collective, Cambridge University and Editions de la Maison de Sciences de l'Homme, cambridge and Paris, 1983, pp. 119 - 122.)

الصناعة والترشيد (Industry and Rationality)

إن الفلاحين العاملين يتخذون دائما قرارات متعقلة ، ويخططون للمستقبل معظم الوقت - وهم مضطرون للقيام بذلك ، وإلا فإنهم يفقدون الحياة - ولكنهم لا ينتجون على مستوى كبير،

مستخدمين عمالة كثيرة وطرقا حديثة . وقد نجد قادة الصناعة يراهنون على التقدم إلى الأمام إلى جانب قراءتهم لنتائج الكمبيوتر ولأحداث السوق . ويمكن للزراعة أن تأخذ شكل ما يقدمه الرى المحسوب بالكمبيوتر ، بالإضافة إلى المبيدات الكيماوية المتحكمة فى الحشرات . وفى المجتمع الصناعى ، نجد أن السمات العريضة - مؤسسات على نطاق واسع ، وتخصص ، وسيطرة الإحصائيات المتعلقة بالأسواق المختلفة (من أجل العمالة ، ورأس المال ، والأرض ، والإنتاج) والكل يأتون معا لكى يؤثروا فى المجتمع ككل .

كيف يحدث هذا ، وعملية التصنيع هى موضوع الجزء التالى .

عملية التصنيع :

هناك طريقتان مختلفتان لتحليل أصول التصنيع . ويرى الماركسيون أن أصل التصنيع هو تنمية رأس المال . وهذا الرأى يرى أنه كلما تواجد التقدم العلمى ، صاحب هذا التقدم إنتاج أكثر ، وازدادت قدرات الفرد تحسنا فى المجتمع . ومع ذلك فإن وجود علاقات الإنتاج ، وأشكال الثروات ، وما يؤخذ بدون منافسة عن كم الإنتاج الذى لابد أن يذهب لجماعات مختلفة فى عملية الإنتاج . ورؤية الذى يسهم فى قيمة الإنتاج ، كل هذه الأشياء تمثل قيودا على تحقيق الإنتاج للمجتمع ، وهناك تعارض قائم بين العوامل (التكنولوجية والمعلومات الفنية والحرفيين) للإنتاج والعلاقات (الترتيبات القانونية والتنظيمات الاجتماعية وأشكال التعاقدات وأشكال التوزيع والمعتقدات عن صحة المؤسسات الموجودة فى المجتمع) للإنتاج . هذه التناقضات تبدو فى أشكال مختلفة ، مبتدئة من الاضطرابات المحلية وانسحاب العمال إلى نوع من التعبير الثقافى عن الاحتجاج . وعلى أى حال فإن أى شكل من الأشكال المعلن عنها ، والطبقات الاجتماعية أو الجماعات الإجتماعية هى المستغلة معظم الوقت من النظام القائم ، وهى تحاول أن تطيح أو تلقى بهذا النظام أو الطبقة السائدة .

وليس هذا فقط وجهة نظر عن أصل الصناعة والرأسمالية ، فهى نظرية عامة عن كيفية حدوث التغير الاجتماعى والتنمية . ويمكننا التحدث بها عن فترة الإنتقال فيما قبل الصناعة والمجتمعات قبل الرأسمالية ، إلى المجتمع الصناعى الرأسمالى ، كما هو فى آخر مراحل التنمية ، وعلى وجه الخصوص الانتقال إلى المجتمع الاشتراكى .

إن معظم تحليلات "ماركس" تهتم بكيفية عمل المجتمع الرأسمالى - وتذكر أن عمله

الأساسى يسمى (Das Kapital) . إن معظم أعمال المدرسة الماركسية تهتم بدول العالم الثالث كما تركز على كيفية الانتقال من الرأسمالية الصناعية إلى الإشتراكية . وكانت هذه المشكلة هى المشكلة الرئيسية فى أعمال "فرانك" (Frank) و "وارن" (Warren) وموضحة فى الفصل الثانى

والأصل الثانى لهذه التقاليد ، يرجع إلى ما كتبه "دوركايم" فى علم الاجتماع ، وتأكيده على النمو المتبادل الحادث لتقسيم العمل فى المجتمع . وكما تتوقع فإن هذه التقاليد تشمل فروض وظيفية ، لتؤكد الطرق التى بها أعطى التصنيع فرصة لظهور مشاكل هذا التواكل الأدائى ، وللميل إلى الفوضى الاجتماعية – إنها نوع من الأمراض الاجتماعية – التى تظهر فى الفترة التى يصاحبها إنتشار الإنتاج الصناعى .

ومن هذا المنظور ، نرى أن الصناعة ينظر إليها على أنها تتدفق من محاولات لحل المشكلات الموجودة والناتجة عن زيادة كثافة السكان ، والتى يعتقد " دوركايم " أنها السبب الأساسى فى تقسيم العمل . وهذا المدخل يؤكد على دور هذه الأفكار والاكتشافات – فنيا واجتماعيا – والتى تأتى من الأفكار الجديدة . وعلى أى حال ، فإن نظريات التحديث ثابتة فى هذه المقولة . إن مفتاح مشكلة التصنيع فى هذا الرأى ، ليست العملية نفسها ، ولكن فى المشاكل الاجتماعية التى تحدث منها المشكلة الرئيسية والتى تسمى (بالأنومى) * (anomie) على مستوى الفرد أو المجتمع ككل . هذا الرأى الدوركايمى يعرض نفسه فى نظرية التحديث ، مع اهتمام بالتكامل الاجتماعى وغير التكامل ، ونرى هذا فى النقاش عن (التحضر والسياسة) (أنظر إطار ٤ – ٥) .

إطار ٤ – ٥ التكامل فى المجتمع

يرى "بلاك" (C. E. Black) فى كتاباته عن سياسة التحديث فى الستينات ، أنه اختار مصطلح "المجتمع المتكامل" لكى يصف المجتمع الناجح فى التحديث :

إن جوهر هذا المظهر ... (فى التنمية) ... هو تلك الحركة الكبيرة للجماعات من الريف إلى المدينة ، أى انتقال بناء المجتمع من المناطق المستقلة تنظيميا والجماعات الحرفية إلى أخرى مفككة للغاية حيث يكون الفرد فيها معزولا .

إن مفهوم التكامل يعنى على وجه الخصوص ، أن يرتبط الفرد بالمحليات والإقليميات والأبنية الذاتية ، قد انخفضت أو تراجعت فى نفس الوقت ، وانتقلت إلى روابط أكثر انتشارا

، حيث ينوب فى المدينة وتقوى الشبكة الصناعية .

ومثل هذا المجتمع الذى يصل إلى هذه المرحلة من التكامل ، يمكن استغلال مصادره البشرية أكثر وأكثر ، وكلما ارتفع مستوى المجتمع فى الميكنة تعرض لحدوث شلل فى أشكال المؤسسات .

ومن المحتمل فى زمن الفوضى أن يصاب المجتمع بالبطالة على نطاق واسع ، وعدم الاستقرار الاجتماعى . وفى المجتمعات الأقل تكاملا ، نجد البطالة مكثفة ، بل يمكن أن يكون هناك من لا يعمل إطلاقا

(Black, C. E., The Dynamies of Modernisation, Harper and Row, New York and London, 1966, pp. 67 - 68)

ومن خلال هذه النظرية العامة ، ينظر دائما إلى الصناعة على أنها مفتاح التحديث . وأما دور مقاول الأفراد أو الملتزم فمؤكد عليه ، ولا يعنى أنه ملتزم صناعى ، بل بالأفراد المخترعة بوجه عام .

وفكرة "ماكليلاند" (MeCllelland) عن الحاجة إلى الانجازات the need for achievement "ناش" (Nach) (أنظر إطار ٤ - ٦) ، وهذا الرأى عن قوة الدوافع للتغير الاجتماعى عامة ، وعملية التصنيع كحالة خاصة أو كحالة بعينها للتغير الاجتماعى .

إطار ٤ - ٦ الحاجة إلى الإنجاز

كتابات ماكليلاند عام ١٩٦١ تقول :

"إن كل اهتماماتى ليست منصبة على النمو الثقافى ، ولكنها على النمو الاقتصادى ... إننى مهتم بالعوامل الداخلية - فى القيم والدوافع التى لدى الرجال ، والتى قودهم لاستغلال الفرص ، واستغلال الظروف المواتية للظروف التجارية ، وباختصار لتشكل قدرهم أو مستقبلهم ... ومن بين الدوافع الهامة أو الرئيسية ، هناك ما نسميه "بالحاجة إلى الإنجازات" . إن الحاجة إلى الإنجازات * هى الرغبة للأداء الجيد وليست مجرد أن يعرفها المجتمع ، أو للحصول على ميزة ، ولكن للحصول على شعور داخلى شخصى بإنجاز شىء هام" .

* (Nach) هى اختصار "الاحتياج للإنجازات" (Needs a chivment)

(Mc Clelland, D., The Achievement Motive in Economic Growth, in Hoselits, B. F., and Moore, W. F. (eds.) Industrialisation and Society, 1966, pp. 74 - 76.)

إن كتابات "ويلبرت مور" (Wilbert E. Moore) تلخص الظروف التى أحدثها التصنيع على نطاق واسع فى المجتمع . (Wilbert E. Moore, Social Change, Prentice Hall, New York, 1964)

(أنظر إطار ٤ - ٧)

إطار ٤ - ٧

"مور" (Moore) وظروف التصنيع .

الظروف العامة للتصنيع :

١ - تغير القيم : إن هذا أساسى ويشمل تبنى الطرق المتعقلة أو الرشيدة فى حل المشاكل ، ومرتبطة بقاعدة قومية للشخصية ، والمفروض أنها تزود الناس باحتياجاتهم غير الرشيدة . وعلى وجه الخصوص ، فهى القاعدة التى يمكن أن يقوم عليها الحراك الاجتماعى

٢ - التغير فى النظم : إن التغيرات فى هذا المجال تقوم على تنمية العلاقات فى الأسواق وخاصة فى العمالة وفى الثروة . وهناك أنماط أخرى من الادارة - مثل الثروات المحجوزة وتنظيم العمالة غير المدفوعة ، وعلى سبيل المثال خطوط القرابة يمكن أن ترى أو ينظر إليها على أنها عوائق ، ولابد من التغلب عليها فى فترة الانتقال إلى المجتمع الصناعى

٣ - التغير فى المؤسسات : وهذا يعنى وجود تشكيل حكومى إدارى هرمى وخدمات مدنية كما فى المشروعات الفردية .

٤ - التغير فى الدوافع : كما يراها "مور" ، وهى عبارة عن رغبة قليلة لحياة أفضل ، والتى ترتبط بانتشار المشاركة ، لكى يستطيع الناس أن يشعروا بأنهم ضمن التغير . ماكيلاند والآخرون يرون أن الحاجة للإنجازات (Nach) يمكن تعلمها ، وأن التنمية يمكن تحقيقها من خلال عملية (الذوبان) فى الثقافة والأفكار والتكنولوجيا .

وهناك كثير من المشاكل لهذا النموذج من الصناعة . وعلى وجه الخصوص ، فإنه ينظر إلى المجتمعات الصناعية الموجودة ويفترض أن مميزاتها أو خصائصها ، هى بالضرورة التى تحدث التصنيع فى المستقبل فى أماكن أخرى ... وإن تأثير العملية يمكن أن يكون السبب فى عملية مشابهة فى مكان آخر ، ولا يوجد هناك مبرر كاف في كيفية حصولها على مثل هذه السمات التى وصفوها أو زودوها بها هؤلاء النظريون .

والتعليق الآتى "لمور" (Moore) يلخص الموضوع أو القضية : كيف تحدث مثل هذه التغيرات فى أماكن نامية الآن ، وربما تعطى إجابة مختلفة ، حيث أن هناك تطورا بطيئا فى التاريخ الخاص بالصناعة فى العالم الغربى . وبالرغم من عدم وجود أى مؤسسة محرضة أو ذات سلطة مطلقة ، وحتى فى المجتمعات الدكتاتورية ، فإن الدولة تميل إلى أن تكون مؤثرة فى البناءات الاجتماعية عنها فى المجتمعات البروليتارية . (Moore, W. E., 1964, p. 97.)

وربما تسأل نفسك بعض الأسئلة عن هذا الرأى ، وعلى سبيل المثال :

١ – كيف كان التغير بطيئا فى الدول حديثة التصنيع ؟

٢ – إلى أى مدى كانت التغيرات التى أحدثتها الصناعة فى الداخل ؟

٣ – ماهى العوامل الخارجية التى يمكن أخذها فى الاعتبار ؟

٤ – هل هناك تاريخ واحد للتصنيع ؟ أو هل هناك اختلاف حول هذا التاريخ ؟

إن المؤرخ الاقتصادى "ألكساندر" (Alexander Gerschenkron) فى كتابه "التخلف الاقتصادى من المنظور التاريخى" (Harvard University Press, Cambridge, Mass., 1962) يؤكد أن التنمية مع القائمين على التنمية المحدثين يمكن أن يساعدوا أو يعوقوا بخبرات أو تجارب تلك المجتمعات التى سبقتهم بالتنمية . "إن القائمين بالتنمية يمكن أن تساعدهم أو تعوقهم المجتمعات التى سبقت فى هذا المجال" وقواعد هذه اللعبة قد تغيرت بتأثير الخبرات التنموية المتتابعة .

ڤيبر والتصنيع :

هناك نظريتان اجتماعيتان عن التصنيع غاية فى الأهمية . إحداهما قدمت بواسطة "ماكس ڤيبر" ، والأخرى تعرف بالنظريات المحورية "convergence thesis" .

لاحظت فى بداية كتاب "ڤيبر" (أخلاق البروتستانت وروح الرأسمالية) ، وهو عبارة عن جزء من دراسة كبيرة تهدف إلى اختبار العلاقة بين التغير الإقتصادى والمعتقدات الدينية . فهو يرى أن نشاط الناس الاقتصادى يتأثر إلى حد ما بالمعتقدات الدينية ، ويرى "ڤيبر" أن التنمية الرأسمالية كشكل عام من أشكال التنظيمات الاقتصادية فى بلاد بعينها فى شمال أوربا نتجت على الأقل بعد تبنى بعض التجار والحرفيين للديانة المسيحية الكالڤنية ، والتى تؤكد على مسئولية الفرد ، وأن يعمل بجدية ، وأن يحيا حياة بسيطة ، ويدخر ويخطط للمستقبل . وهى فى الواقع صفات التنمية الرأسمالية . ولكنهم لم يحدثوها "أى الرأسمالية" إلا أنها اتفقت مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية الموجودة فى ذلك الوقت ، بل أضافت دافعا فى اتجاه الرأسمالية . وينبغى ألا نسىء فهم "ڤيبر" من أنه لم يذكر أن المسيحية (الكالفينية) هى التى أدت إلى الرأسمالية ، بل أعطتها دافعا قويا إلى الأمام . وفى الواقع ، هناك أجزاء كثيرة من العالم كالصين ، التى نجد فيها الظروف الاقتصادية والاجتماعية مماثلة للظروف التى فى أوربا إلا أنه لم يكن هناك معتقدات دينية تعادل الكالفينية تساعدهم على هذا الطريق .

وهناك أبحاث كثيرة قد أجريت لتختبر هذا الفرض ، وخاصة كتاب "روبرت بيلا"

(Robert Bellah's book To kugawa Religion : The values of pre-industrial Japan (Glencoe, Illinois, 1957).

(قيم ماقبل الصناعة فى اليابان) ، والذى يوضح فى كتابه أن الزهد الظاهر فى ثقافة محاربى الساموراى ، أعانتهم حتى أصبحوا القاعدة الفعالة فى اليابان لقيام الصناعة الرأسمالية فى اليابان ، وفى مجال ريفى آخر مختلف . يقدم "باركن" دراسته عن أهل جيرمانيا فى كينيا بعنوان دراسة فى المجتمع الريفى . (Parkin, D. J., Palms, Wine and Witnesses, Intertext Books, 1972.) . كما قام باحث آخر وهو "لونج" (Long) بدراسة عن مجتمع "اللالا" (the Lala) فى زامبيا ، فى كتاب بعنوان (التغير الاجتماعى والفرد) وكانت دراسته عن الاستجابات الاجتماعية والدينية للتجديد .

(Long, N., social change and the Individual : a study of ghe social and religious responses to innoviation, Manchester University Press, 1968.)

وكل من "باركن" و "لونج" اقترح أن القوم الذين هم فى مراكز ، يمكن أن يصبحوا مجددين وفى استطاعتهم تبنى الآراء الدينية الجديدة وعلى الأقل لأن هذا يعطيهم وسيلة للوصول إلى المساعدات المتبادلة من ذوى المعتقدات الأخرى ، وتتيح لهم فرصة الخروج من الواجبات التقليدية التى ربما تمتص رأسمالهم بعيدا . (أنظر إطار ٤ – ٨)

إطار ٤ – ٨ الإسلام عند "چرياما"

إن أهل جرياما هم مربو ماشية ، ويقومون بالزراعة لتساعدهم . ولهم الحق فى الأرض وفى إنتاج أشجار بعينها ، ويقوم شيوخ المجتمع بحمايتهم ، ويقرون بملكيتهم فى حالة النزاع . وفى خلال العشرينات والثلاثينيات بدأوا فى زراعة أشجار جوز الهند لكى يحصلوا على الثمن نقدا من بيع جوز الهند ولب جوز الهند المجفف . ولقد بدأ بعضهم ينعم بالثراء من جراء هذه الزراعة .

ولقد بدأ البعض منهم يواجه مشكلة :

"لابد وأن يتعاملوا باللغة التى ترضاها عاداتهم كوسيلة للسيطرة على الاستثمار ، "تذكر أن الملكية يقرها الشيوخ" ومن الجانب الآخر إن أهدافهم طويلة الأمد ، كانت تسعى إلى التوسع والتغير فى مشاريعهم الاقتصادية ، مع تقليل اعتمادهم على الزراعة" .

كان النقد يوجه إليهم ، لأنهم لا يتبعون العادات المكلفة ، مثل الانفاق فى حالات الزواج أو الجنازات – كما أنهم لا يقومون بالإحتفال بأعياد أو يشربون خمور التمر .

ويمثل هذا الحدث يمكن لنا أن نسميه مبدأ الطقوس الشائعة . ولقد تعرض العديد من هؤلاء الزراع الناجحين ووكلائهم لضغوط مكثفة ، ومروا بما يسمى روح الإسلام . وبعد ذلك أصبحوا مسلمين ، لدرجة أنهم يصومون رمضان ويمنعون الخمور ، ولا يأكلون أى لحم لا يذبحه مسلم ، فى حين أن خمور جوز الهند كانت تشرب يوميا فى "چرياما" (Giriama) واحتفالات أكل اللحم الجماعى كانت من الاحتفالات الدائمة فيها ، ومع ذلك فقد كانت هناك علاقات وثيقة بين الأصدقاء ، وعلاقات اجتماعية بين هؤلاء الزراع الناجحين وجيرانهم العاديين وأصدقائهم ... (Parkin, D. J., 1972, pp. 2-3.)

إن مثل هذه النظرية "الفيبرية" لا تهتم بالتصنيع مباشرة ، بل كانت تهتم بنظام العمل والعمالة والاختراعات ، وموقعها من التغير الاجتماعى والتاريخى ، وأن هذه الأشياء يمكن أن تحدث بدون التصنيع ونتائجه . ويوجد في كل المجتمعات مخترعون ، ولكنها كنظرية توضح نظام العمل والعمالة ، ولتفسير وإيضاح أصول الرأسمالية ، والإنتاج الصناعى الذى يعتبر اساس الرأسمالية ، وحينئذ فإن النظرية تشرح الصناعة .

النظرية المحورية :

هناك مجموعة من النظريات تعلق على التصنيع ، تعرف باسم الابحاث أو الرسائل المحورية ، حيث توجد فى أعمال "كلاركير" (clark Kerr) و "هاربن" (Kerr, c., Dunlop, J. and Harbin, F., Industrialism and Industrial Man , Heinemann, 1960.)

إنهم يقولون أن الانتاج الصناعى يتطلب الآتى :

(١) استثمارات عالية التكاليف – تؤدى إلى انتشار القوة بين كثير من مختلف الناس ، والإخصائيين الفنيين والإداريين .

(٢) اللامركزية – الاعتماد على الكثير من المتخصصين المختلفين ، وهذا يعنى أن القوة تنتشر بين الجماعات المختلفة من المجتمع .

(٣) اختيار الأجدر أو الأفضل : الاعتماد على المشروعات الفنية ، وهذا يعنى أن أفضل الناس والمناسبين يعطون القوة والسلطة عن غيرهم والذين يرثونها أى يرثون القوة ، إما عن طريق أسرهم أو من خلال نوع من التوالى (فرد يلى الآخر) ، أى بالوراثة * .

والخلاصة أن الفقر يختفى لأن العمال يطمحون دائما فى الحصول على الأجور الأعلى ، أما العمالة اليدوية الثقيلة ، لم تعد متوفرة لأن الناس قد تحولوا إلى استخدام الخدمات الفنية والتكنولوجية أكثر ، كما استخدموا أنماطا معينة من العمالة . وتأخذ الدول الحديثة على عاتقها مسئوليات أكبر ، من أجل الرخاء . وهم يعتبرون أن الدولة الاشتراكية كالإتحاد السوفيتى ، مجرد أسلوب لشرعية الاعتداء على التصنيع . وفى النهاية كل المجتمعات الصناعية ، سوف تصل إلى صفات متشابهة ، وأخيرا تأخذ الشكل الأوربى الغربى أو أمريكا الشمالية .

---

* يتميز نمط السلطة فى البلاد النامية بالطابع الاستبدادى ، الذى يستمد مبرر وجوده من مصادر غيبية أو وراثية – هناك بعض الاستثناءات من هذا الحكم العام – كما وقد عمدت بعض القوى الاستعمارية الى تدعيم هذه السلطة بغرض أن تيسرعلى نفسها وظيفة جباية الضرائب ، جمع الموارد والمنتجات الزراعية التى تريدها السلطة المستعمرة لتصديرها خارج البلاد .

– محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف ، جـ١ ، ١٩٧٨ ص ١٦٩ .... [المترجمة]

إن هذا الرأى عن التصنيع ، يوضح الطريق لشرح أو إيضاح طرق التقنية أو التكنولوجيا التى يتم بها الإنتاج ، والتى تحدد شكل المنظمات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية . إن أحد تنبؤات هذه النظرية ، هو أن الدول سواء كانت اشتراكية باقتصادها المخطط ، أو الدول ذات الاقتصاد الرأسمالى وأسواقها الحرة ، سوف تتقارب ، مؤدية إلى "نهاية الأيدولوجيا" والتى كانت عنوانا لكتاب "دانيال بل" (Daniel Bell) أحد أعضاء هذه المدرسة .

أما "لونج" (Long) فقد اعتبرها نظرية غير كافية بسبب إصرارها على الحتمية التكنولوجية :

أما التغيرات الأخيرة فى الصين وفى الاتحاد السوفيتى ، فإنها تدفعنا لإعادة النظر بطريقة جادة ، على أنها نظرية غير كافية لتوضح كيفية حدوث الصناعة ، وربما كانت وصفا مفيدا لسمات عامة للمجتمعات الصناعية بوجه عام . ومن المؤكد أيضا أن أجزاء من العالم الثالث قد أصبحت مجتمعات صناعية خاصة فى شرق آسيا ، حيث توجد "تايوان وسنغافورة وكوريا الجنوبية وهونج كونج" التى مارست تغيراً وانتقالاً جذريا خلال العشرين سنة الأخيرة .

ظروف التصنيع :

إن نقاد نظرية التحديث قد أوضحوا أن التصنيع فى دول العالم الثالث لا يتبع نفس النمط كما هو فى العالم المتقدم . فهؤلاء الجدد يدخلون لعبة مختلفة ، حيث لابد وأن يتغير النظام أو القانون . وفى هذا القسم ، نلقى نظرة على القواعد أو القوانين ، ونرى كيفية حدوث التصنيع ، وما هو الشكل الذى اتخذه . والتفكير فى هذه المشكلة ، يرجع جذوره إلى صدمة الحرب العالمية الثانية ، عندما انقطعت دول العالم الثالث عن التصنيع وعن أوربا وأمريكا الشمالية . (أنظر إطار ٤ – ٩)

إطار ٤ – ٩ العزلة والتصنيع

بظهور قوميات ، دول جديدة لتكوّن ما يسمى بدول العالم الثالث ، اشتدت الحاجة إلى طلب التنمية الصناعية فى هذه البلاد . وخلال الحرب العالمية الثانية ، عندما ضعفت المنافسة بين الدول المتقدمة ، نتيجة توقف الخطوط الملاحية ومايشبه ذلك ، ظهرت البرجوازية الصناعية الصغيرة فى بعض الدول الأقل تقدما . وبعض هذه الصناعات بالإضافة إلى التجار والتجار الأغنياء من دول العالم الثالث ، تطلعوا إلى تكوين القطاعات الصناعية من

أجل الثراء الرأسمالى . أما السياسيون فى الدول حديثة الاستقلال ، فقد كانوا يتطلعون إلى التصنيع كوسيلة للتنمية التى لم تكن للبلاد فحسب ، بل كانت لأنفسهم كذلك . وعلى الأقل فإن بعض هؤلاء القادة ذوى القوة ، رأوا أن الصناعة فيها منفعة مادية لهم ، وخاصة فى تكوين الشركات الصناعية المحلية ، التى يستمدون عن طريقها نوعا من الدكتاتورية .

(Edwards, C. B., The Fragmented World, Methuen, London and New York, 1985, p. 211.)

وفى هذا المقتطف يجب أن تلاحظ أن التصنيع له جذوره التى تشغل اهتمام الطبقات ، إلا أنه لم يكن نتاج عمليات النمو الطبيعى .

هذه العزلة أدت إلى فكرة استيراد الصناعات البديلة ، فكانت موضع اهتمام الكثير من الناس وخاصة فى دول أمريكا اللاتينية ، فى حين أن دول العالم الثالث لم تستمر كما كانت فى فترة الاحتلال ، لتظل فقط مصدرا للإنتاج (إنتاج المعادن والزراعة) والتى كانت تنتج فى دول العالم الثالث ولكنها تنمو فى الدول المتقدمة . ولم يكن ذلك مجرد طلب محدود على هذه المنتجات، بل يصاحبها أيضا انخفاض فى الأسعار . وبكلمات أخرى "كانت هناك مصطلحات معادية للتجارة" ، إنك تضطر أن تنتج أكثر وأكثر منتجات أولية لتشترى نفس كميات البضائع المصنعة المستوردة . إن الإنتاج الأساسى أو الأولى لا يؤدى إلى النمو الاقتصادى لأسباب أخرى كذلك . (أنظر إطار ٤ – ١٠)

إطار ٤ – ١٠ الإنتاج الأساسى أو الأولى ، "الروابط" و "والصناعات البدائية"

فى أوائل الستينات كان هناك تشاؤما فى تقدير العائد على المنتجات الأساسية ... (بعض) الاقتصاديون يقولون أن القطاع الأساسى (the primary sector) كان يلازمه التخلف إذا قورن بالقطاع الصناعى بسبب الروابط الخاصة بالأخير (العلاقات الداخلية بين قطاعات الصناعة والأجزاء الأخرى للإقتصاد) ، وبسبب الإدعاء بأن الإقتصاد الأعظم يقع فى الصناعة ... فإذا ما نشأت مثل هذه الصناعة المتقدمة ، فإنها تجذب الأنشطة الأخرى حولها ، بسبب ما تتطلبه من كل الامدادات من صناعات أخرى وتدعيم أساسى ، كما تتطلب أيضا عمالة ماهرة ...

إن تنمية أو ترقية الصناعات مع تدخل الحكومة توفر كلاً من الدعم المادى (أنظر إطار

٤ – ٨) فى الدول الأقل تقدما والمبررات النظرية . ويقال أن هذا الترقى لابد وأن يتأتى عن طريق الحماية ، بحجز الأسواق الداخلية لهذه الصناعات حديثة التأسيس ... هذه الصناعات البدائية ، أى فى بداية قيامها كانت تحتاج لفترة من الرعاية ضد الرياح الباردة من الدول المنافسة . وهكذا نجد أن الصناعات فى مراحلها الأولى ، تستخدم فى تبرير الحماية التى تمت فى دول العالم الثالث فى الستينات .

(Edwards, C. B., 1985, pp. 211 - 212.)

إن تصدير المواد الصناعية البديلة لم ينجح ، بالرغم من أن التصدير فى الستينات فى دول العالم الثالث قد ازداد بسرعة كبيرة ، من ثلاثة ملايين عام ١٩٦٠ إلى أكثر من تسعة ملايين عام ١٩٧٠ ، بل وصل إلى ثمانون مليونا عام ١٩٨٠ (C. Edwards, 1985, p. 218.) وما كان هذا ناتجا عن استيراد المواد البديلة ، بل كان نتاج مايسمى بالتقسيمات الدولية الجديدة للعمالة .

إن استيراد البدائل قد وقع فى المشاكل الآتية :

(١) من إطار ٤ – ١٠ تستطيع أن ترى أن الصناعات الطفولية أو الحديثة ، لابد من حمايتها بالسياسة الحكومية ، وذلك بفرض التعريفة الجمركية وعمولات الاستيراد والمواد الخام ذات الأسعار الرخيصة . وهذا يعنى أن الصناع قد تم حمايتهم من السوق ومن أى مناقشات عقلية ورشيدة ، عن ما هو وكيفية انتاجه .

(٢) تحتاج الصناعات الحديثة إلى آلات وكيفية العمل الفنى أو التكنولوجى ، وهذا لابد من استيراده ، والاستيراد يتطلب عملة صعبة والتى لابد وأن تكتسب بزيادة التصدير من المنتجات الأولية .

(٣) يمكن استيراد الآلات والتكنولوجيا من الشركات العالمية المعروفة مثل (TNCS) أى (الاتحاد الدولى للنقل) ، وتستطيع هذه الشركات أن تستثمر إذا كان الاستثمار فى صالحها ، ولا يمكنها أن تستثمر إذا لم تبع فى السوق المحلية ، وهكذا تدمر الصناعة الطفولية أو الحديثة .

(٤) كان هناك طلبا محدودا لتصنيع المنتجات فى دول العالم الثالث ، لأن معظم الناس كانوا فقراء ، لا يستطيعون الشراء . وقد يرغبون شراء تليفزيون وسيارة ومرطبات وسلع أخرى

للرفاهية ، إلا أن رغبتهم الأولى كانت تتطلب مسكنا نظيفا ومأكلا ومأوى * .

إن الفشل فى استيراد المواد البديلة للتصنيع يعنى أنه لابد من اختيار طريقة جديدة وتجربتها . (أنظر إطار ٤ – ١١) وقد أدى هذا إلى سرعة نمو التصدير المصنع فى السبعينات وفى بداية الثمانينات ، والتى أشير إليها من قبل . وهذا المدخل الجديد قد سُمِّى (تصدير الصناعات الموجهة) .

إطار ٤ – ١١ نظرية التبعية وفشل استيراد المواد البديلة للصناعة :

نظرية التبعية تمتد جذورها فى فشل استيراد المواد البديلة للصناعة فى أمريكا اللاتينية .

"إن نظرية التبعية هى رد الفعل لمفهوم الفشل فى التنمية القومية من خلال استيراد المواد البديلة للصناعة ... ففى الستينات ... أصبح من الواضح ... أن استيراد المواد البديلة لم يقلل الاعتماد أو التبعية . إن الدخول (Income) البديلة قد بدت وكأنها تنمو بطريقة غير متساوية ، أو غير متكافئة ، وظلت مجموعة كبيرة من الناس عى الهامش ، وانتشر الاغتراب الثقافى ، واستمرت مجتمعات أمريكا اللاتينية مقسمة وغير مستقرة وقد خضعت السياسات القومية للتصنيع لنظام الاتحادات القومية المتعددة ، وكان التصنيع فى أمريكا اللاتينية تحت سيطرة وسيادة المستثمرين الأجانب ... "فنظرية التبعية ظهرت كمحاولة لشرح هذا الفشل" .

(O' brien, P., A Critique of Latin American Theories of Dependency in Oxaal, I., et. al. (eds.), 1975, pp. 10 - 11.)

إن هذا النوع من التصنيع ، قد جُرِّب فى شرق آسيا والبرازيل ، ولم يتعرض للفشل . ففى بداية السبعينات قامت كوريا الجنوبية بالتصدير بنسبة كبيرة أكثر من ٢٠٪ فى السنة . (Edwards, C. B., 1985, p. 296.) ومعظم هذا التصنيع قائم على الصناعات الخفيفة (على الرغم من أن كوريا الجنوبية لديها صناعة ثقيلة من الصلب ، إذ تقوم ببناء السفن والسيارات) مثل الألكترونات والملابس . وهذه التنمية قامت على الإنتاج الجماهيرى ، نتيجة لتدخل الدولة . وبالرغم من وجود مثل هذه الظروف فى دول أخرى ، إلا أنها لا تستطيع أن تتكرر فى أى دولة أخرى (أنظر إطار ٤ – ١٢) .

* هناك أولويات بالنسبة للمجتمعات الفقيرة ... ومن هنا نجد أن المهاجرين من هذه البلاد يعودون إليها وقد اقتنوا هذه السلع الكمالية كنوع من التعويض عن الحرمان السابق ، ولهذه السلوكيات آثارها الاقتصادية السيئة على المجتمعات النامية ، كما يؤدى إلى زيادة التبعية للبلاد الصناعية . ... [المترجمة]

ويجب أيضـا ملاحظة أن فى مثل هذه الدول ، هناك مستوى عال من التعصب العرقى ووحدة ثقافية ، والتى ربما كانت تحت ستار القومية ، وتسمح الأنظمة الحكومية بسياسة الكبت الشديد لتأخذ مجراها من خلال سياسة خشنة ، تفرض أجوراً ضعيفة وساعات عمل طويلة . وهذه القومية التى لابد وأن نقارنها بالاختلافات العرقية والدينية والثقافية فى الهند وكثير من دول أفريقيا ، وقد قويت فى الهند نتيجة لقربها من الصين الشيوعية ، وتهديدها المستمر للدول ذات الشعوب الكبيرة ، والتى لجأ معظمهم هربا من الشيوعية ، كما هو الحال فى تايوان وهونج كونج .

إطار ٤ – ١٢ عوامل خاصة وكبت سياسى فيما يسمى "النمور الأربعة الصغار"

"إن العامل الرئيسى فى نجاح هونج كونج هو صلتها الخاصة مع الصين ، ومنها قد استمدت تدفقا غزيرا من العمالة المهاجرة ، كما استمدت كذلك رأس المال ... كما هو الحال فى كوريا الجنوبية ... فهناك حقيقة مادية لتدخل الحكومة من أجل إنتاج جماهيرى وترقية الصناعة ، فالحكومة تقدم معونات وأرباح على التجارة التى نشأت من حرب فيتنام ، والتى لعبت دورا كبيرا فى كل من كوريا الجنوبية وتايوان ... أما فى سنغافورة ، فكانت هذه العوامل أقل أهمية ، إلا أنها لعبت كذلك دورا إلى حد ما" .

(Edwards, C. B., 1985, p. 296.)

وتعتمد الكثير من الحكومات على القوة . فالحكم العسكرى يستخدم سلطته فى يوم الاستقلال ، ليقنع أو يوهم المواطنين ، كما أنه يرسم الخطط والتجهيزات لحصر حركة العصيان أوالتمرد ، فهى حرب طبقية من نويهم وليست ضد عدو أجنبى ... دول شرق آسيا ... لقد تحملت لحكم طويل من الكبت ضد التنظيمات الشعبية من أى نوع : حوالى مائة وأربعون سنة فى هونج كونج : وما يقرب من قرن فى تايوان وكوريا الجنوبية . ولا يستطيع أحد أن يجاريهم فى هذا المضمار فى العالم ، ماعدا جنوب أفريقيا .

(Worsley, P. M., The Three worlds, Weidenfield and Nicholson, 1986, p. 228.)

ولا ندرى ما إذا كانت خبرة الدول يمكن أن تتكرر فى دول أخرى . فهناك رأى يقول إنه لا يمكن ذلك . إنه يأتى من نظرية النسق العالمى ، ويشير إلى دور الإتحادات عبر الأوطان . وأثناء كتابة هذا الكتاب ، كسرت الآلة الكاتبة ونظرت داخلها فوجدت مكوناتها تأتى من دول

مختلفة ، فقد جاءت من تايوان وسنغافورة وهونج كونج والسلفادور والمكسيك . وهكذا وجدت أن الآلة الكاتبة قد انتقلت آلاف الأميال قبل أن تتجمع فى شكل واحد . وهذا هو مثال من الأمثلة لما نسميه "تحليل رأس المال" ، والعملية التى بها تستطيع الشركات الكبرى نشر مراحل مختلفة للإنتاج بين بلاد مختلفة ، معتمدة على استطاعتها فى الحصول على أحسن المعاملات من أجور منخفضة ، ومهارات عالية ، ومساندة الحكومات لها . ويأتى هذا الدعم والمساندة دائما من مناطق عمليات التصدير . وهذه مناطق خاصة داخل البلاد ، حيث يحصل المستثمر الأجنبى على ظروف خاصة لصالحه ، مثل الإعفاء من الضرائب على الواردات . ومثل هذه المناطق توجد فى بريطانيا . وهناك حالات أخرى : حيث تعمل الإتحادات الدولية على إقامة أعمال تجارية ، وتقيم أطول فترة ممكنة تجنى فيها الفوائد الخاصة ، وتغادر المكان بعد عدة سنوات ، حيث تجد مكانا أفضل وجذبا أكثر .

وفى هذا الرأى نجد أن النسق العالمى ينظر إليه كوثائق رأس المال ... وانتقال سيطرة رأس المال القومى والدولى ، والقومى الموجه وحكم للأغلبية العمالية (غالبا أرخص وأضعف الطبقات العمالية هى النساء دائما) اللاتى يقمن بالعمل . والتقدم الذى يحرزه هذا الرأى على نظرية التبعية ، أنه يسمح بوقوع نوع من التنمية فى الدول التى على محيط الدائرة ، كالبرازيل والأربعة نمور الصغار الذين يتوسطون بين المدن الكبيرة والتوابع لنموذج التبعية .

الدعوة من أجل إقامة نظام عالمى جديد للاقتصاد : -

The Call for a New International Economic Order (NIEO).

على الرغم من نمو التصنيع السريع والمؤثر فى بعض أجزاء من دول العالم الثالث ، فإن كثيرا من الدول تعتمد وبشدة على الإنتاج الأولى ، لأن معظم شعوبهم تقوم بالإنتاج الزراعى ، فهم يهتمون بالحصول على أعلى سعر لمحصولاتهم وبيعها نقدا . وربما تتذكر أننى قد ناقشت هذه المشكلة بالمصطلحات الخاصة بالتجارة بين المنتجات الأولية والمصنعة .

وفى بداية السبعينات نادت كثير من دول العالم الثالث بفكرة (NIEO) ، كانت هذه الفكرة تأمل فى تكوين ما يشبه باتحاد تجارى لدول العالم الثالث ، وإحدى نتائج أو عائد هذا ، هو تكوين مجموعة من سبع وسبعين دولة ، وهى فى الواقع الآن تتكون من مائة وعشرين عضوا ، إلا أنها ليست مؤثرة جزئيا ، لأن المنتجين المبتدئين يتنافسون بعضهم البعض لبيع منتجاتهم ، ويعمل اتحاد التجارة إذا قام أعضاؤه بالعمل فى وفاق ... ومنظمة الأقطار المصدرة

للبترول هى إحدى هذه التنظيمات الناجحة تماما حتى الآن (OPEC) ، وأن مستقبل هذا العمل متوقف على طريقة تصدير المنتجات الزراعية ، الذى لا يبدى تفاؤلا ، لأن أسواق العالم، بعد كل شىء ، هى أسواق لا تأخذ فى اعتبارها الاحتياجات الاجتماعية لدول العالم الثالث ، بالرغم من نداءات لجنة "برانت" (Brandt)

(Brandt, W., North - South : A Programme for Survival, Pan Books, 1983.)

من أجل الوصول إلى علاقات شريفة بين الدول الغنية فى الشمال والدول الفقيرة فى الجنوب ، بسبب الاهتمام العام بالربح ، الذى يبدو أكثر أهمية من "العدالة" .

ملخص : لقد شاهدنا كيف كانت مشكلة التصنيع هى مفتاح مشاكل علم الاجتماع عامة، وهى مشكلة هامة لعلم اجتماع التنمية ، فالتصنيع يأخذ الإنتاج من المنزل إلى العالم الخارجى . ونظرية التحديث القائمة على رأى "دوركايم" و "فيبر" اللذان يؤكدان أن التصنيع يشمل التغيرات فى اتجاهات الناس وتوقعاتهم ، وفى إقامة علاقاتهم . ويناقش فيبر الترشيد ، منبهاً أن الرأسمالية تتطلب تغيرا ثقافيا مؤثرا على التخطيط والكفاءة والتعليل الدقيق . وقد رأينا العلاقة الوطيدة بين التحضر والتصنيع ، مع أننا يجب ألا ننسى أن الزراعة يمكن تصنيعها ، وأن الفلاحين على مستوى من الرشد مثل الصناعيين .

وقد أوضحت أن هناك طريقين مختلفين لتحليل أصول التصنيع . فالماركسية توضح أصل الصناعة وارتباط هذا الأصل بالتنمية الرأسمالية ، بالرغم من عدم وجود اتفاق قوى فى داخل هذا الرأى التقليدى ، ممثلا فى نظريات " فرانك " و "وارين" (Frank and Warren)

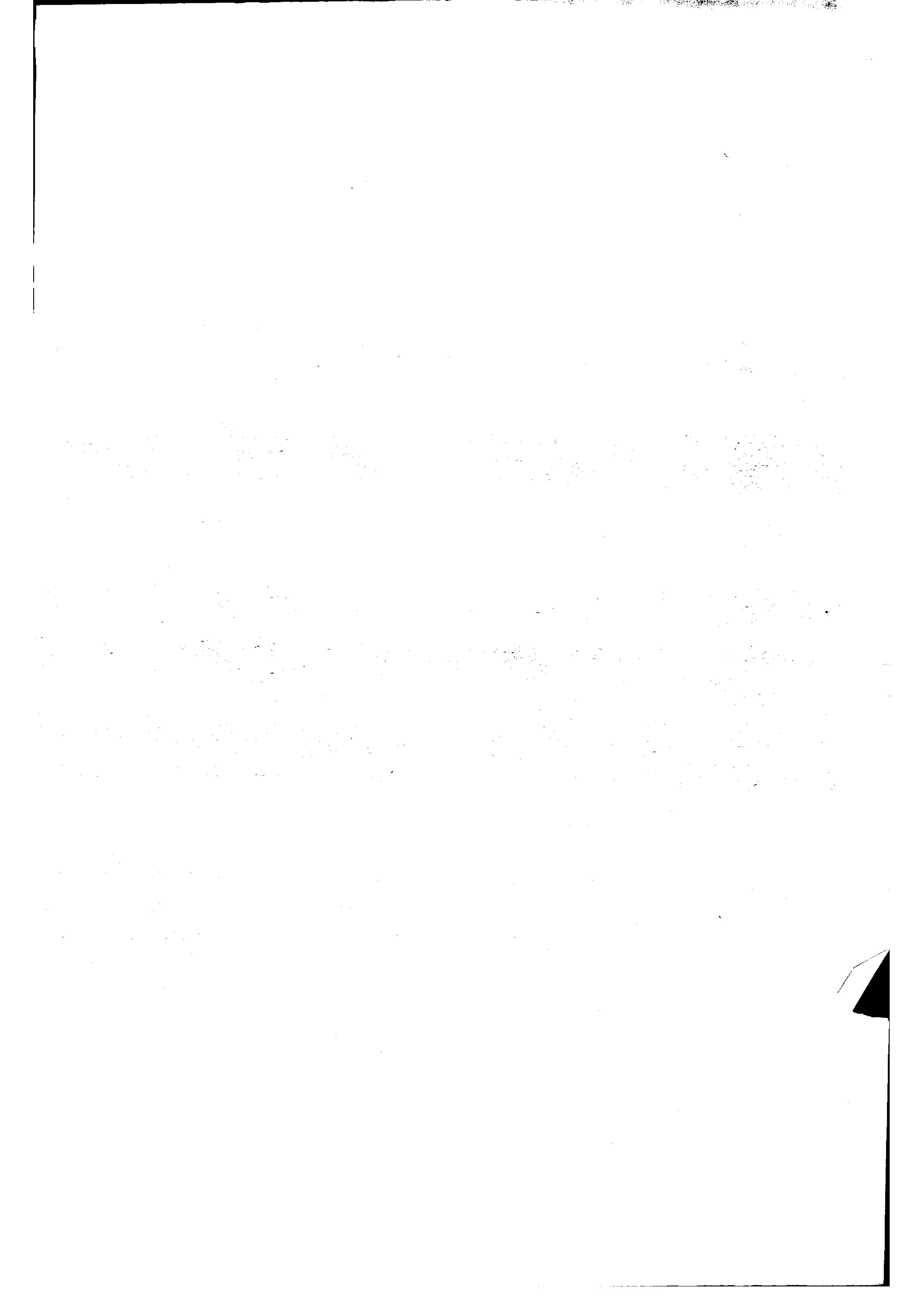
والدوركايميون يرون أن التبعية تنمو مع تقسيم العمالة فى المجتمع .

أما "الكسندر جير سكنكرون" (Alexander Gerschenkron) يحذر من المشاريع المستقبلية ، بناء على الخبرات السابقة للتصنيع ، لأن كل خبرة تغير الأحكام أو القوانين السابقة .

ولقد تأكدت من أن لفيبريين وإسهاماتهم تركز على مكان الملتزم أو المقاول أو الوسيط ، كما لاحظت أن النظرية المحورية (convergence theory) تحتاج إلى كثير من الاهتمام . ورأينا أن سياسة الواردات البديلة قد فشلت ، وأن فشلها قد أعطى دفعة لنظرية التبعية ،

الجزء الثالث

الخطوط العامة لعلم اجتماع التنمية



الفصل التاسع

تعريف وقياس التنمية

مشاكل تعريف التنمية :

ربما كنت تتوقع أن أشرح هذه المشاكل فى الفصل الأول مع إيجاد تحديد دقيق لتعريف التنمية . وهناك سبب رئيسى لتركها إلى هذه المرحلة ، ولعلك الآن قد أدركت أن التنمية كمفهوم يحتوى على حكم قيمى بوجه عام ، وعلى وجه الخصوص أحكام سياسية قيمية . ويصدق هذا على موضوعات كثيرة فى علم الإجتماع ، إنه من الصعب التعبير بالكلمات الدقيقة ، أو المحددة التى يجب استخدامها فى وصف (الدول المتخلفة) و (الدول المتقدمة) و (الأقل نموا) و "الأجزاء المتخلفة" من العالم (أنظر إطار ٩ - ١) .

إطار ٩ - ١

التعريفات ، والوصف ، والنظريات :-

إليك بعض الكلمات التى اعتدنا أن نستخدمها لوصف خواص أو مميزات هذه البلاد والمناطق التى ربما توصف بأنها متخلفة :

فقير	متخلف
استوائى	تقليدى
ارتجاعى ، عكس الاتجاه	مزدحم سكانياً
أقل نمواً ...	متخلف طبيعياً
متقدم	صناعى
أسود - زنجى	ريفى
الدول النامية	العالم الثالث *

ربما تفكر فى ثلاثة أسئلة ترتبط مع كل من هذه الخصائص :

* هناك تحفظ على بعض هذه المترادفات فليس على سبيل المثال كل أسود ذنجى ريفى ، ولا كل ريفى ذنجى ، وليست كل المجتمعات المزدحمة هى استرجاعية ... إلخ .... [المترجمة] .

١) ما هو الإعلاء الذى نريده من "عمليات التنمية" ؟
٢) إلى أى مدى تعمم المصطلحات أو الكلمات بشكل عام وعلى وجه الخصوص مع بلدان بعينها ؟ أو بكلمات أخرى ، إلى أى مدى هى عامة ؟
٣) ما هى القيم السياسية الضمنية التى نستخدمها مع أحد هذه المصطلحات ؟

عندما نفكر فى هذه الأسئلة عليك أن تتذكر ما قلته فى الفصل الأول عن النظريات ، فى أنها تشبه اللغة ، واللغة التى تسمح لنا بالكلام عن أشياء وليس عن الأخرى ، عن الطريقة التى تؤدى بها الكلمات برنامج أو جدول أعمال للمناقشة . أنظر إلى جدول (٢) "بأسفل" متجاهلاً ولو للحظات العمود المعنون PqLI .

جدول (٢) إجراءات حساب دخل الفرد بالنسبة لإجمالى الدخل القومى .

المفاهيم النظرية المستخدمة فى على الاجتماع على سبيل المثال : (المكانة الإجتماعية ،

نسبة إجمالى الدخل القومى بالنسبة للفرد فى ١٥٠ دولة	دخل الفرد بالنسبة للدخل القومى بالدولار GNP	دليل سمات الحياة الطبيعية PqLI	السكان (بالآلاف)
١ – كامبوتشيا	٧٠	٤٠	٧٫٥٨٥
٢ – لاجوس	٧٠	٣١	١٠٫٧١٨
٣ – مالى	٩٠	١٥	١٦٫٠٩٠
٤ – بنجلاديش	٩٢	٣٥	٨٦٫٨٠٩
٥ – أثيوبيا	٩٧	٢٠	١١٣٫٢٢٤
٦ – راوندى	٩٧	٢٧	١١٧٫١٦٤
٧ – فولتا العليا	٩٩	١٦	١٢٢٫٨٧٢
٨ – نيبال	١٠٢	٢٥	١٣٤٫٧٧٤
٩ – بورما	١٠٥	٥١	١٦٤٫٢٦٨
١٠ – بوروندى	١١١	٢٣	١٦٧٫٨٢٦
١١ – الصومال	١١١	١٩	١٧٠٫٨٠٦
١٢ – تشاد	١١٣	١٨	١٧٤٫٦٣٨
١٣ – ملاوى	١١٥	٣٠	١٧٩٫٢٧٦
١٤ – غينيا بيساو	١٢٠	١٢	١٧٩٫٧٨٢

١٥ – بنين	١٢٤	٢٣	٦٦٢ر١٨٢
١٦ – غينيا	١٢٦	٢٠	٨٣١ر١٨٦
١٧ – ليسوتو	١٣١	٤٨	٩٢٧ر١٨٧
١٨ – النيجر	١٣٢	١٣	٢٣١ر١٩٢
١٩ – الهند	١٣٣	٤٣	٤٠٦ر٧٧٠
٢٠ – زائير	١٣٦	٣٢	٤٦٨ر٧٩٣
٢١ – افغانستان	١٣٧	١٨	٠٩٧ر٨١١
٢٢ – جامبيا	١٥٣	٢٥	٠٨٣ر٨١٢
٢٣ – تنزانيا	١٥٤	٣١	٤٣٨ر٨٢٦
٢٤ – باكستان	١٥٥	٣٨	٩٤٣ر٨٩١
٢٥ – هايتى	١٧٦	٣٦	٣٣٧ر٨٩٦
٢٦ – سيرلانكا	١٧٩	٨٢	٥٨٦ر٩٠٩
٢٧ – الجمهورية العربية اليمنية	١٨٠	٢٧	٨٠٥ر٩١٥
٢٨ – فيتنام	١٨٩	٥٤	٠٨٤ر٩٥٧
٢٩ – إندونيسيا	٢٠٣	٤٨	٨٤٠ر٠٨٤ر١
٣٠ – سيراتيون	٢٠٣	٢٧	٦٥٤ر٠٨٧ر١
٣١ – مدغشقر	٢٠٤	٤١	١٣٠ر٠٩٥ر١
٣٢ – كينيا	٢١٣	٣٩	٣٧٩ر١٠٧ر١
٣٣ – افريقيا الوسطى	٢٢٦	١٨	٠٨٠ر١٠٩ر١
٣٤ – أيسلاند	٢٣٠	٤٣	٣٦٨ر١٠٩ر١
٣٥ – السودان	٢٤١	٣٦	٣٥٠ر١٢٦ر١
٣٦ – مصر	٢٤٥	٤٣	٧٨٦ر١٦١ر١
٣٧ – توجو	٢٥٠	٢٧	٨٩٠ر١٦٣ر١
٣٨ – اليمن الشعبية	٢٦٠	٣٣	٤٣٨ر١٦٥ر١
٣٩ – أوغندا	٢٦٥	٤٠	٠١٨ر١٧٦ر١
٤٠ – الكاميرون	٢٧٣	٢٧	١٣٥ر١٨٢ر١
٤١ – موريتانيا	٢٨٧	١٧	٣٥٨ر١٨٣ر١
٤٢ – نيجيريا	٢٩٧	٢٥	٣٥٧ر٢٤٢ر١
٤٣ – جمهورية الصين الشعبية	٣٠٠	٦٩	٦٧٩ر٠٤٧ر٢

٤٤ – سوما الغربية	٣٠٠	٨٤	٢ر٠٤٧ر٨٣٢
٤٥ – بتسوانا	٣١٦	٥١	٢ر٠٤٨ر٤٨٦
٤٦ – تايلاند	٣١٨	٦٨	٢ر٠٨٧ر٤٠٥
٤٧ – بوليفيا	٣٣٢	٤٣	٢ر٠٩٢ر٥٥٠
٤٨ – موزمبيق	٣٣٣	٢٥	٢ر١٠١ر٢٣٧
٤٩ – الفلبين	٣٤٢	٧١	٢ر١٤٢ر٢٥٨
٥٠ – سويتز لاند	٣٥٣	٣٥	٢ر١٤٢ر٦٩٧
٥١ – اكوتوريل جوانا	٤٥٣	٨٢	٢ر١٤٢ر٩٩٥
٥٢ – السنغال	٣٥٥	٢٥	٢ر١٤٧ر٣٦٧
٥٣ – هندوراس	٣٥٩	٥١	٢ر١٤٩ر٩٦٢
٥٤ – زامبيا	٤١٥	٢٨	٢ر١٥٤ر٦٢١
٥٥ – ليبريا	٤١	٣٦	٢ر١٥٦ر٢٣٧
٥٦ – السلفادور	٤٣٢	٦٤	٢ر١٦٠ر٠٤٩
٥٧ – المغرب	٤٣٦	٤١	٢ر١٧٦ر٣٦٤
٥٨ – الأردن	٤٥٢	٤٧	٢ر١٧٨ر٨٤٨
٥٩ – بابويا جنوه الجديدة	٤٦٠	٣٧	٢ر١٨١ر٤١٣
٦٠ – كوريا	٤٦٤	٨٢	٢ر٢١٣ر٧٤٨
٦١ – ترنداد	٤٦٥	٧٧	٢ر٢١٣ر٨٥٤
٦٢ – الكونغو	٤٦٥	٢٧	٢ر٢١٥ر١١٢
٦٣ – كاب فيرد	٤٧٠	٤٨	٢ر٢١٥ر٤٠٤
٦٤ – اكوادور	٥٠٥	٦٨	٢ر٢٢١ر٩٦٥
٦٥ – ساحل ايفورى	٥٠٦	٢٨	٢ر٢٢٦ر٥٦٣
٦٦ – كولومبيا	٥٢٦	٧١	٢٢٥٠ر٥٤٦
٦٧ – روديسيا	٥٢٩	٤٦	٢ر٢٥٦ر٣٣٨
٦٨ – البانيا	٥٣٠	٧٥	٢ر٢٥٨ر٦٦٤
٦٩ – براجواى	٥٣٣	٧٥	٢ر٢٦١ر١٣٨
٧٠ – جواتيمالا	٥٤٠	٥٤	٢ر٢٦٦ر١٥٢
٧١ – موريشيس	٥٥٢	٧١	٢ر٢٦٧ر٧١٤
٧٢ – جوانا	٥٥٩	٨٥	٢ر٢٦٨ر٤٦٤

٧٣ – غانا	٥٩٥	٣٥	٢ر٢٧٧ر٧١٥
٧٤ – انجولا	٦٠١	١٦	٢ر٢٨٣ر٧٢٧
٧٥ – تونس	٦٢٦	٤٧	٢ر٢٨٩ر١٦٩
٧٦ – الردمينيكان	٦٣٠	٦٤	٢ر٢٩٣ر٩٠٠
٧٧ – جويا	٦٤٠	٨٤	٢ر٣٠٢ر٩٢٣
٧٨ – نكراجوا	٦٥٠	٥٤	٢ر٣٠٥ر٠٦٧
٧٩ – سوريا	٢٦٢	٥٤	٢ر٣١١ر٨٢٣٠
٨٠ – ماليزيا	٦٩٢	٦٦	٢ر٣٢٣ر١٠٠
٨١ – بيرو	٧٠١	٦٢	٢ر٣٣٧ر٣٨٧
٨٢ – الجزائر	٧٨٠	٤١	٢ر٣٥٢ر٩٤٨
٨٣ – تركيا	٧٨٩	٥٥	٢ر٣٩٠ر٥٠٥
٨٤ – لبنان	٨٢٢	٧٩	٢ر٣٩٣ر١٧٤
٨٥ – تايوان	٨٤٧	٨٦	٢ر٤٠٨ر٥٩٨
٨٦ – كوستاريكا	٨٨٤	٩٥	٢ر٤١٠ر٤٦٤
٨٧ – البرازيل	٩١٢	٦٨	٢ر٥١٢ر٩٣١
٨٨ – فيجى	٩٨٩	٨٠	٢ر٥١٣ر٤٨٠
٨٩ – المكسيك	٩٩٦	٧٣	٢ر٥٦٨ر٢٣٩
٩٠ – العراق	٩٩٩	٤٥	٢ر٥٧٨ر٤٥١
٩١ – جاميكا	١ر٠٣٧	٨٤	٢ر٥٨٠ر٤٠٧
٩٢ – مالتا	١ر٠٥٠	٨٧	٢ر٥٨٠ر٧٢٧
٩٣ – رومانيا	١ر١٠٠	٩٠	٢ر٦٠١ر٤٣٨
٩٤ – شيلى	١ر١٣٧	٧٧	٢ر٦١١ر٣٤٩
٩٥ – شرق أفريقيا	١ر٢٠٥	٥٣	٢ر٦٣٤ر٣١١
٩٦ – بنما	١ر٢٤٠	٨٠	٢ر٦٣٥ر٨٩٩
٩٧ – جواديلوب	١ر٢٤٠	٧٦	٢ر٦٣٦ر٢٤١
٩٨ – إيران	١ر٢٦٠	٤٣	٢ر٩٦ر٨٨٢
٩٩ – أورجواى	١ر٢٦٨	٨٧	٢ر٦٦٩ر٩١٤
١٠٠ – سورينام	١ر٢٨٢	٨٣	٢ر٦٧٠ر٣١١
١٠١ – الأرجنتين	١ر٢٨٥	٨٥	٢ر٦٩٤ر٨٧٧

١٠٢ – يوغسلافيا	١ر٣٤١	٨٤	٢ر٧١٥ر٧٢٤
١٠٣ – بربادوس	١ر٣٥٢	٨٩	٢ر٧١٥ر٩٦
١٠٤ – البحرين	١ر٣٧٠	٦١	٢ر٧١٦ر١٩٨
١٠٥ – قبرص	١ر٤٨١	٨٥	٢ر٧١٦ر٨٥١
١٠٦ – البرتغال	١ر٥٣٥	٨٠	٢ر٧٢٥ر٥٤٦
١٠٧ – مارتينيك	١ر٥٤٠	٨٣	٢ر٧٢٥ر٨٩٧
١٠٨ – ريونيون	١ر٥٥٠	٧٣	٢ر٧٢٦ر٣٦٧
١٠٩ – هونج كونج	١ر٦٢٤	٨٦	٢ر٧٣٠ر٤٥١
١١٠ – جزر الانتيلى	١ر٦٤٢	٨٢	٢ر٧٣٠ر٦٨٥
١١١ – بلغاريا	١ر٧٨٠	٩١	٢ر٧٣٩ر٣٢٧
١١٢ – ترندا دوتوجو	١ر٨٦٧	٨٥	٢٧٤٠ر٣٠٩
١١٣ – سنغافورة	٢ر١١١	٨٣	٢ر٧٤٢ر٤٧١
١١٤ – الجابون	٢ر١٢٣	٢١	٢ر٧٤٢ر٩٨٤
١١٥ – البوتان	٢ر١٤٨	٨٩	٢ر٧٢١ر٨٤٦
١١٦ – فنزويلا	٢ر١٧١	٧٩	٢ر٧٦٣ر٢٣٢
١١٧ – هنغاريا	٢ر١٨٠	٩١	٢ر٧٧٣ر٦٩٨
١١٨ – بورتوريكا	٢ر٢٣٠	٩٠	٢ر٧٧٦ر٤٩١
١١٩ – ايرلندا	٢ر٥٣٤	٩٣	٢ر٧٧٩ر٥٣٤
١٢٠ – روسيا	٢ر٣٨٠	٩١	٣ر٠٢٨ر٤٣٧
١٢١ – أسبانيا	٢ر٤٥٨	٩١	٣ر٠٦٣ر٠٤٣
١٢٢ – بولندا	٢ر٥١٠	٩١	٣ر٠٩٦ر٣٠٠
١٢٣ – ايطاليا	٢ر٧٥٦	٩٢	٣ر١٥٠ر٤٩٤
١٢٤ – ياهاما	٣ر٢٨٤	٨٤	٣ر١٥٠ر٦٨٤
١٢٥ – تشيكوسلوفاكيا	٣ر٣٣٠	٩٣	٣ر١١٦ر٢٣٢
١٢٦ – السعودية	٣ر٥٢٩	٢٩	٣ر١٨٣ر٥٨٥
١٢٧ – اسرائيل	٣ر٥٧٩	٨٩	٣ر١٧٦ر٧٣
١٢٨ – المملكة المتحدة	٣ر٦٥٨	٩٤	٣ر٢٣٢ر٧٢٧
١٢٩ – المانيا الديموقراطية	٣ر٧١٠	٩٣	٣ر٢٤٩ر٨٥٣
١٣٠ – اليابان	٤ر١٤٦	٩٦	٣ر٣٥٧ر٥٧٩

١٣١ - نيوزيلاندا	٤ر٢٢٢	٩٤	٣ر٣٦٠ر٥٠٥
١٣٢ - ليبيا	٤ر٤٠٢	٤٥	٣ر٣٦٢ر٦٠٢
١٣٣ - النمسا	٤ر٥٢٩	٩٣	٣ر٣٧٠ر٠٩٥
١٣٤ - فنلندا	٤ر٩٨٤	٩٤	٣ر٣٧٤ر٧٢٤
١٣٥ - استراليا	٥ر٤٤٩	٩٣	٣ر٣٨٧ر٩٠٥
١٣٦ - نزرلاند	٥ر٥٥٨	٩٦	٣ر٤٠١ر٢٢١
١٣٧ - فرنسا	٥ر٥٨٥	٩٤	٣ر٤٥٣ر٠١٣
١٣٨ - ايسلندا	٥ر٧٠٨	٩٦	٣ر٤٥٣ر٢٢٤
١٣٩ - المجر	٥ر٨٤٥	٩٣	٣ر٤٦٢ر٩٦
١٤٠ - لوكسمبرج	٦ر٠٥٤	٩٢	٣ر٤٦٣ر٣٠٧
١٤١ - نورواى	٦ر٢٢١	٩٦	٣ر٤٦٧ر٣٤٩
١٤٢ - المانيا الشرقية	٦ر٥٠٧	٩٣	٣ر٥٢٨ر٤٤٠
١٤٣ - كندا	٦ر٥٢٧	٩٥	٣ر٥٥٠ر٣٦٤
١٤٤ - الدانمرك	٦ر٦٠٦	٩٦	٣ر٥٥ر٣٤٢
١٤٥ - الولايات المتحدة	٧ر٠٢٤	٩٤	٣ر٧٦٤ر٧٤٤
١٤٦ - السويد	٧ر٦٦٨	٩٧	٣ر٧٧٢ر٩١١
١٤٧ - سويتزلاند	٨ر٥٦٩	٩٥	٣ر٧٧٩ر٣١٢
١٤٨ - قطر	١١ر٧٧٩	٣١	٣ر٧٧٩ر٤٩٢
١٤٩ - الكويت	١٣ر٧٨٧	٧٤	٣ر٧٨٠ر٤١٥
١٥٠ - الإمارات العربية المتحدة	١٤ر٣٦٨	٣٤	٣ر٧٨٠ر٧٣٥

المصدر مأخوذ عن موريس ١٩٧٩ .

مشكلة تعريف التنمية هى مثال لما كتبه "جرى روس" "gerry Rose" عن (حل شفرة الأبحاث الاجتماعية فى ماكميلان سنة ١٩٨٢) ما يسمى (تحديد المفاهيم والمؤشرات) يقول "روس" :

لابد أن نكون على حذر عند الانتقال من المستوى العام للأفكار المجردة ، والكلمات التى ليس لها الوضوح فى تعريف المعانى ، مثل التنمية - بالنسبة لمستوى القياس حيث أهميتها فى تعريف مصطلحاتنا بدقة ، حيث يمكننا استخدامها كمقاييس فهو يقول : كثير من المفاهيم النظرية المستخدمة فى علم الاجتماع على سبيل المثال : (المكانة الاجتماعية ،

التكيف ، الإغتراب ، السلطة) صور للحقيقة ، وهى تجريدات لا يمكن رؤيتها مباشرة . وللتحقق من قضية مثل ... (التحضر يتسبب فى تحطيم القيم التقليدية) ... ينبغى أن نعرف المؤشرات العملية (الأمبيريقية) للمفاهيم . وعملية تنمية مؤشر واختبار صدق صحته تسمى (فعالية المفهوم ، وأحيانا هذا يتم عن طريق استخدام ... (أ) ... المقياس (Rose, G., 1982, P 305.)

وبالرغم من أننا لا نميل إلى الاتفاق على دقة تعريف التنمية ، لأن هناك قيم مختلفة ، ولكن هذه ليست مشكلة رئيسية – فيشير "ماكس فيبر" أن كل العلماء (وليس علماء الاجتماع فقط) يبدأون من قيم شخصية . والمشكلة العلمية الحقيقية هى تنفيذ البحث بطريقة تبدو منها المناقشة وتحديد المفاهيم ، وطريقة القياس واضحة للآخرين . ولهذه الأسباب فإن "تحديد المفاهيم" هام جداً فى أى نقاش علمى أو منطقى . اجمالى الدخل القومى (G.N.P.) ومقاييس التنمية مستخدماً دليل الحياة الطبيعية (PqLI) . لقد رأيت فى جدول (٢) أن ثراء أى دولة يتضح من نسبة إجمالى الدخل القومى (G.N.P) للفرد (بالرأس) . هذا القياس عبارة عن طريقة المتوسط ، إنه لا يذكر شيئاً عن التوزيع الكلى للدخل . وهكذا نجد أن بعض الدول مثل : (الكويت وقطر) ذات الدخل غير المتساوى فى التوزيع ، ربما يكون لها أعلى دخل فرد فى العالم . وعلى النقيض ، جمهورية الصين الشعبية لها أقل مستوى دخل ، ولكن هناك عدالة فى التوزيع . الإقتصاديون دائماً يقيسون درجة عدم المساواة "بمعامل جينى" ، ومقياس آخر لقياس الثروة القومية هو (G.D.P) (أنظر إطار ٩ – ٢) .

إطار ٩ – ٢

إجمالى الإنتاج المحلى (G.D.P) ، إجمالى الدخل القومى (G.N.P) كما أننا نستخدم إجمالى الدخل القومى (G.N.P) ، فإننا نستخدم مقياساً آخراً : هو مقياس الإنتاج المحلى (G.D.P) . هذا المقياس يقيس كل الأنشطة الإقتصادية القومية معاً . إجمالى الدخل العام (G.D.P) للفرد يحسب بتقسيم القيمة الكلية للأنشطة الإقتصادية على كل الأفراد . وعلى النقيض فإجمالى الدخل القومى (G.N.P) يخبرنا عن قيمة المخرجات الإقتصادية الناتجة عن استخدام الموارد والعمالة – الأرض – ورأس المال المملوك لأعضاء المجتمع .

الخط الفاصل أو الواضح بين GNP و GDP له أهمية ، فكثير من دول العالم الثالث تعتمد بشدة على رأس المال الأجنبى إذا ما استثمر الأجانب نقودهم فى بلد ما ، فهم ينقلون بعض أربحاهم إلى وطنهم الأم ، أن تدفق الأرباح من بعض الأقطار يعنى أن (G D P) ربما يفوق إجمالى الدخل القومى (G N P) بنسبة ٢٠٪ ، ومن أهم المستثمرين الأجانب فى دول العالم الثالث شركات متعددة الجنسيات أو شركات عبر الأقطار (أنظر إطار ٦ - ٩) .

دليل الحياة الطبيعية (P q L I) كمقياس للتنمية :

من الواضح أن مفهوم "التنمية" مفهوم معقد ، ويمكن تعريفه بطرق مختلفة ، معتمدين على سمات الأفراد وطريقة حياتهم ، (وكيف يعيشون) ، أو على المجتمع ككل . أى يمكنك تحديد معنى التنمية ، بعدة طرق معتمداً على الطريقة التى تراها مهمة سواء كانت تصف أفراداً فى المجتمع ، أو مجتمعاً باكمله . ويمكنك استعمال "إجمالى الدخل القومى" (G N P) ، فعلى سبيل المثال : إذا ما قررت أن مستوى الإنتاج الكلى للمجتمع ككل هو السمة الأساسية للمجتمع المتقدم . فنجد "موريس" "M.D. Morris" فى كتابه "قياس الحالات للعالم الفقير" (Pargamon Press, 1979.) يحاول تطوير دليل "السمات الطبيعية للحياة" ، ويقول بناء مثل هذا الدليل صعب لأننا نقارن مجتمعات مختلفة ، فهو يرى أن المقياس المفيد لابد وأن يواجه الظروف التالية : -

(١) يجب ألا يتبنى نمط واحد للتنمية . وعلى وجه الخصوص يجب عليه ألا يفترض أن الطريقة الغربية هى أفضل الطرق .

(٢) مرتبطة بالنقطة السابقة ، وهى أن القياس لا ينبغى له أن يفترض أن قيم التنمية هى واحدة فى كل المجتمعات .

(٣) القياس لابد أن يقيس النتائج (كم عدد الناس الذين يستطيعون القراءة والكتابة) بدلاً من أن يقيس المدخلات (ماهى المبالغ التى انفقت على التعليم) .

(٤) ينبغى أن يعكس توزيع الاستفادة الاجتماعية . وينبغى ألا يستخدم المتوسطات العادية والتى يمكن أن تخفى فجوات سوء التوزيع للأرباح .

(٥) ينبغى أن يكون بسيطاً - لأن المؤشرات المعقدة تكون صعبة فى الفهم .

(٦) ينبغى أن تُعين المقارنات بين المقاطعات والأقاليم للبلاد .

وقطعاً انه من الصعب أن أقابل مثل هذه المبادىء ، ولكن "موريس" يقترح أنه من

الممكن بناء دليل -يستخدم ثلاثة مؤشرات - توقعات الحياة ، الوفيات فى الأطفال فى السنة الأولى ، القراءة والكتابة عند البالغين - . ففى مقياس (P q L I) لأى بلد تعنى ما سجله أى بلد فى هذه المؤشرات الثلاثة ، وإذا ما نظرت إلى جدول (٢) ، سوف ترى "غينيا بساو" (البلد رقم ١٤) سجلت P q L I (١٢) وهذا يوضح نوعية الحياة لهؤلاء الناس لأنها فقيرة جداً . وعلى النقيض "السويد" (البلد رقم ١٤٦) نجد أن عندها أعلى نسبة فى (P q L I) ٩٧ . وربما لاحظت فى جدول (٢) أنه لا يوجد علاقة واضحة بين إجمالى الدخل القومى للفرد G N P و (P q L I) إطار ٩ - ٣ يشرح لماذا يحدث هذا .

إطار ٩ - ٣ (P q L I والدخل القومى G N P)

ليس مستغرباً أن نجد اختلافات كبيرة بين الدول فى المصطلحات الخاصة بالدخل ومقياس الحياة الطبيعية "PqL Is" ... ، فالدول الفقيرة (ذات الدخل المحدود للفرد GNPs) تميل إلى تسجيل منخفض بالنسبة لـ "P q L Is" ، بينما تتمتع الدول المتقدمة بدخل عالٍ ومستوى عالٍ فى الـ PqL Is ومع ذلك فإن العلاقة بين الـ GNP والـ PqL I ليست وثيقة ، فكل مستويات الدخل توضح وجود انحراف ، وهى تبدو على وجه الخصوص فى المستوى العالى والمستوى المنخفض لمستوى الدخل الفردى . فعند طرف المنظور نجد الدول المنتجة للبترول فى الشرق الأوسط ، وعلى الأخص "السعودية" ، "وقطر" ، "والإمارات" ، "وليبيا" ، تقف محققة أعلى دخل قومى للفرد GNPs ، وأقل فى الـ PqLIs (سمات دليل الحياة الطبيعية) ومن بين هذه الدول المنتجة للبترول ذات الدخل العالى نجد "الكويت" لها علاقة عالية بالـ PqLI (٧٤) . ففى أربعة من الخمس دول تتساوى فى الدخل أو أعلى من المتوسط لأعلى دخول دول ومع ذلك ثلاثة منهن أقل من متوسط الدول الفقيرة فى الـ PqLIs . ففى " ليبيا " نجدها على الهامش بنسبة أعلى من أى دولة منخفضة الدخل . وهناك انحرافات أخرى واضحة نجد فيها أن دليل مستوى الحياة الطبيعية منخفض نتيجة للدخل القومى GNP من هذه الدول "انجولا" حيث أن الدخل القومى (٦٠١) دولار والـ "PqLI" (١٦) و "الجابون" حيث يبلغ دخل الفرد من الدخل القومى (٢،١٢٣) دولار ، ومستوى الـ PqLI (٢١) ؛ و "إيران" بالرغم من أن مستوى دخل الفرد بالنسبة للدخل القومى : (١.٢٦٠) دولار أى أعلى تسع مرات من الهند ، ففى الهند (١٣٣) دولاراً ومع ذلك فمستوى الـ PqLI ليس عالياً . وإذا لم يظهر شىء آخر ، فهذه الأمثلة تبين أن النقود ليست كل شىء .

(Morris, M. D., 1979, p. 60.)

إن دليل سمات الحياة الطبيعية PqLI يوضح أن هناك بعض المشاكل فى قياس التنمية عبر محور واحد ، حتى عندما نستخدم دليل مركب ، فهو محدود فى استخدامه ، ولقد فحص كل من "استريتن" ، و "هكس" بعض هذه المشاكل (أنظر إطار ٩ - ٤) .

إطار ٩ - ٤

بعض المشكلات المرتبطة بالـ PqLI :

هناك دراسة حديثة عن استخدام الدليل المركب ... دليل "موريس" لـ PqLI فهو يستخدم ثلاثة مؤشرات بسيطة ، مع أوزان متساوية لمحاولة قياس إنجاز الحد الأدنى للإحتياجات البشرية "minimum human needs" و "موريس" يؤكد أن استخدامه لهذه المؤشرات هو "حكم على إنجاز الإحتياجات الأساسية ، ومن ثم فالمعيار هنا يجب أن يرتكز على المخرجات ، أو النتائج أكثر من المدخلات . مقاييس المدخلات ، وهو شعور لا يقيس النجاح فى مقابل الأهداف المنشودة ، وربما تميل إلى انحياز للظروف العرقية فى الوسائل المستخدمة . واستخدام ثلاثة مؤشرات يسمح بإحصاء الـ (PqLI) على مستوى واسع من الدول ، ويسهل دراسة التغيرات فى الدليل عبر الزمن . فمصطلح "سمات الحياة" هو ربما يكون خطأ فى تسميته ، وذلك لأن ما يقاس فعلاً هو التأثير فى خفض أو انخفاض الوفيات ورفع نسبة من يقرأ ويكتب . وتوقعات الحياة تقيس الكم ، وليس الكيف بالنسبة للحياة . أى يقيس الكمية وليست صفات الحياة ... وغاية فى الأهمية وزن النسق لسمات الـ (PqLI) فهى مبتورة وليس هناك أى ترشيد فى إعطاء أوزان متساوية للقراءة والكتابة ، ونسبة وفيات الطفولة ، وتوقعات الحياة فى السنة الأولى من العمر ... وليس بالإمكان إثبات أن الـ (PqLI) يعطى دليل (سليم) للتقدم فى الاحتياجات البشرية ، فى مقابل بعض الأدلة التى لها أوزان مختلفة ، أو مكونات مختارة مختلفة من الأدلة . وليس واضحاً ما نجنيه بجمع هذه الأجزاء مع هذا النسق والذى لا يمكن الدفاع عنه .

(Hicks, N. and Streeten, P., Indicators of Development : the Search for a Basic Needs Yardstick, in Streeten, P. and Joy, P. (eds.), Recent Issues in World Development Pergamon, 1981, PP. 61 - 62.)

التنمية كقيمة :

فى الفصل الأول والثانى وجدنا أن القيم دائماً تكون وراء نظريات التنمية الإجتماعية . والأن سوف أقوم بدراسة بعض أعمال لكتاب مختلفين ؛ وعلى وجه الخصوص أود أن أدرس ناحيتين من هذا ، أولاً : كيف تتغلب لغة العلم وتخفى القيم ، ثانياً : كيف يستطيع بعض خبراء التنمية المعاصرين - هؤلاء السياسيين الذين حاولوا أن يحدثوا التنمية - فهم التنمية على أنها شىء أكثر من حسابات محدده والذى حاول "موريس" على سبيل المثال قياسها .

التنمية كنسق متنام :

المقتطفات التالية من (زيمون شوداك Zymon chodak) هى مثال للغة التى يستخدمها عالم الإجتماع والتى تستخدم لتجعل مشاكل التنمية تبدو كقيم طبيعية وعلمية ، ومشاكل فنية . وأقترح أن ندرس التنمية الإجتماعية كنسق نام ... وهى ليست فكرة جديدة كلية ... فهى موجودة فى كثير من الكتابات الكلاسيكية ، وخاصة ... أعمال "ماركس" ، و "تونيز" ، و "دوركايم" ، و"ڤيبر" ... وفى فهمى عندما تكون التنمية ترجع إلى المجتمعات ، فهى تشير إلى العديد من الخطوط المتداخلة لعمليات متفرقة للتنمية وعمليات بناء متفرقة ، ووحدات كلية ووحدات ، وجماعات ومؤسسات هذه المكونات للتنمية العامة ، ولكنها تأخذ شكلاً طبيعياً من الخيوط المكونة لها فالخيوط المنفصلة وعمليات التنمية بالرغم من أنها مرتبطة وتؤثر فى بعضها الآخر فهى ليست بالضرورة متطابقة ، ومن ثم فهى ليست بالضرورة تتغير بنفس السرعة ... فعمليات التنمية كما نوقشت يمكنها أن تتميز كمعوق دائم ومستمر ، أو تقع فى ورطة وبرغم ذلك فهى توجه نحو تعقيدات أكثر . وهكذا فهى عملية تولد أنساق عريضة وكبيرة وكثيفة ضمن أنساق متداخلة فى الاعتماد على الذات . إنها العملية التى يتولد منها أنساق عالية المستوى وأحياناً تجتاح أنساق صغيرة القدرة . وقد وصف ذلك "تونيز" بظهور "الجيزلشافت" أى المجتمع المعقد والذى يستوعب تناقضات واختلافات و"الجيماينشافت" أو المجتمع البدائى أو المحلى . وبالنسبة لـ "دوركايم" فهو يميزها على أنها تضامن عضوى نام يجتاح التماسك الميكانيكى فى مزيد من التعقيدات فى تقسيم العمل . واليوم هذه العمليات تزداد تعقيداً وتجتاح بعمليات واسعة منظمة ومنسقة من الدول الحديثة من خلال شبكة عمل بيروقراطية . وهكذا فإن التنمية المجتمعية تولد أحياناً الحاجة إلى "الدولية" الدولة - الأمة etatisation .

(chodak, S., Societal Development : five approaches with conclusions from comparative analysis Oxford University Press, New York, 1973, pp. 8 - 9.)

فى هذا المقتطف ، يرى "شوداك" أن التنمية هى عملية تتعقد فيها المجتمعات ، كما لاحظ ، فهناك رأى سائد تبناه معظم الإجتماعيين الكلاسيكيين . تتزايد فيه المعانى تعقيداً لدرجة أن المجتمعات ذات المقياس الصغير تنضم إلى المجتمعات ذات المقاييس الكبيرة والجديدة ، ونجد أن الإنساق الإجتماعية الكبيرة تتطلب تنظيماً من وحدة سياسية كبيرة ، قيام دولة قومية أو ما يسميه "شوداك" "chodak" : "الدولية" "etatisation" .

ربما تود قراءة ذاك المقتطف بعناية وتحاول استخلاص رأى "شوداك" هناك حل للغز فى الطريقة التى يرى بها الدولة . ربما ترغب فى الرجوع إليه فيما بعد فى القصل السابع الذى ركز على علم اجتماع الدول .

ربما تود قراءة ذاك المقتطف بعناية وتحاول استخلاص رأى "شوداك" هناك حل للغز فى الطريقة التى يرى بها الدولة . ربما ترغب فى الرجوع إليه فيما بعد فى الفصل السابع الذى ركز على علم اجتماع الدولة .

التنمية كتنمية من أجل وبواسطة الناس :

يكتب "جوليوس نيريرى" – أول رئيس جمهورية "لتانزانيا" – كسياسى وليس كعالم اجتماع ، منذ استقلال "تانزانيا" عام ١٩٦١ ، كانت موضع اهتمام لمحاولة تطوير ، أو تنمية "أفريقيا الإشتراكية" ، وقد وجد هذا البلد كثيراً من الصعوبات وجهود التنمية لا يمكن الحكم على نجاحها الآن ، وذلك لأن هذا جزء من رؤية "نيريرى" الراديكالية للتنمية والتى تتضمن ممارسة ومشاركة الناس وأكثر عدالة فى توزيع الثروة . وفى هذا المقتطف يتكلم عن التنمية كتحقيق للقوى الكامنة فى الإنسان . يقول نيريرى : القطر ، أو القرية ، أو المجتمع لا يمكن أن ينمى ، ولكنها تستطيع فقط أن تنمى نفسها . فمن أجل تنمية حقيقية تعنى التنمية ، نمو الناس . فكل قطر فى أفريقيا يمكنه إعطاء أمثلة على التسهيلات الحديثة التى قدمت للناس – والتى هى الآن متعفنة وغير مستخدمة – فعندنا مدارس وشبكات للرى وأسواق غالية وهكذا أشياء أحضرها شخص ما وحاول بها "تنمية الناس bring development to the people." إذا أردت التنمية الحقيقية أن تأخذ مكاناً لابد وأن تشمل الناس ... لكى نكون

صادقين ، فالتنمية تعنى تنمية الناس . الطرق ، والمبانى ، زيادة مخرجات المحاصيل وأشياء أخرى من هذا القبيل لا تعنى التنمية ولكنها أدوات للتنمية فقط . فمد طريق جديد يعطى الإنسان حرية فقط إذا ما سافر عليه .

(Nyerere, S., Freedom and Development, Oxford University Press, Dar es Salaam, 1973, p. 25 and p. 59.)

التنمية كوسيلة لترك التقاليد وراء ظهرنا :

الفقرة التالية كتبها "إيزنستاد" بنفس اسلوب وحيادية "شوداك" فيرى أن التنمية لابد أن تكون مرحلة انتقال لأشكال حديثة من التنظيمات الإقتصادية الإجتماعية وفكرة هذه النقلة ضرورية لأن المجتمعات "التقليدية" محدودة فى تخيلاتها وانفتاحها للتغير . وهى هكذا لأنها مسيطرة عليها بأفكار ضيقة أو محدودة والتى تفوق كل أشكال الإبداع . لهذا السبب التغير لابد أن يأتى من الخارج . المجتمعات التقليدية من الضرورى أن تحلل ، فى دراسات عن التحديث ، تكون متخصصة لهذا الهدف ... فالمجتمعات التى توصف على أنها تقليدية ، والتى تسمى مجتمعات بدائية ، إلى المجتمعات التى توصف بأنها تختلف فى القراءة والكتابة وكثير من أنماط المجتمعات المختلفة . ومهما كانت هذه الإختلافات بين المجتمعات التقليدية فجميعها تتفق فى تقبلها للقديم أو التقليدى فى الأخذ ببعض الأحداث الماضية الواقعية أو الرمزية ، والتى تحدد بعمق شخصيتهم الجماعية وطبيعة المجتمع وثقافته ونظامه كقوة تضفى الشرعية على التغير ، وتحدد حدود التجديد ... إن تلك التحديدات الثقافية للتقليد كأساس للأنشطة الإجتماعية وكمرجع أساسى للشخصية الكلية ، وكموضع لسمات النظم الإجتماعية والثقافية . والرموز الخاصة بالشخصية أو الهوية الجماعية ودرجة الموافقة على التغير بينهم – كل ذلك يشكل جوهر التقاليد .

(Eisenstadt, S.N. Tradition Change and Modernity, John Wiley and Sons, New York, 1973, pp. 151 - 152.)

مناقشة "إزينستاد" عن المجتمع التقليدى وانتقاله إلى التحديث هو نمط من مدخل التحديث ، ومن الواضح أننا نرى تأثير "دوركايم" على هذا المدخل . وهى تشجعنا على طرح هذه الأسئلة :

(١) هل من المفيد أن نصف أنواعاً كثيرة من المجتمعات - والتى يمكن أن نسميها مجتمعات بدائية ، وأن نقارنها بالمجتمعات المتعلمة أو المثقفة - والتى يمكن أن نسميها بالفكر النظرى (المجتمع التقليدى) ؟

(٢) هل الولايات المتحدة مجتمع تقليدى لأنه يأخذ بالعرف كأساس للشخصية الكلية ؟

(٣) ما هى القيم التى تأتى من خلال مصطلح "الجديد" عند استخدامه ففى القاعدة تؤكد نظرية التحديث أن هناك ممرا واحدا إلى التنمية وهو الطريق الأوربى . هذا الطريق يمكن أن يتكرر من خلال الثقافة ، ونظم التغير تحت وصاية أو رعاية الدولة . ويمكننا عدم النظر إلى تاريخ مجتمعات دول العالم الثالث بتفاصيله ، ملاحظين التغيرات التى حدثت لهم والتى أدت إلى ارتباطهم بالعالم الكبير .

التنمية كطريق للكفاح بعيداً عن المكانة أو الوضع الشرعى للعالم الثالث :-

هناك مثال آخر للتنمية تحدده مراكز دول العالم الثالث فى النسق العالمى لكونهم جزء من مشاكله.

[مجتمعات العالم الثالث هى] ... كل الدول التى تنضم تحت نسق التكوين لنظام العالم الحالى لم تصبح غنية وصناعية فمن المنظور التاريخى انه لضرورى أن نفهم ما هو العالم الثالث، لأنه بالتعريف فهم عفى أطراف النسق الناتج عن توسع الرأسمالية ، وفى الكتابات الآتية عن العالم الثالث ، والعالم الثالث ومشكلاته :

(Abadalla, I-S., Que es el Tercer Mundo [what is the Third World], in Guia del Tercer Mundo (Guide to the Third World), 1981, Mexico, Periodistas del Tercer Mundo, P. 6, quoted in Thomas, A., and Bernstein, H., The Third World and Development, Open University Press, 1983, p. 20.)

يرى أن مشكلات التنمية لا تظهر كلية من الارتباكات أو الكبت الداخلى فى المجتمع ولكنها مرتبطة بموقع هذا المجتمع داخل النسق العالمى الرأسمالى . ويقول سمير أمين عن العالم الثالث "samir Amin, a Third World" : إن التخلف لا يظهر فقط فى مستوى الإنتاج للفرد ، ولكن فى عدة مظاهر نبائية والتى تضطرنا إلى عدم الخلط بين الدول المتخلفة والتى أصبحت الآن دول متقدمة بينما كانوا فى مراحل أولى لتنمية .

(Amin, S., Uneven Development, The Harvester Press, 1976, p. 201.)

أمين يوضع ثلاث سمات لدول العالم الثالث بالنسبة لدول العالم :

(١) مجتمعات العالم الثالث دائماً دول منتجة ولكنها لا تتحكم فى أسعار منتجاتها .
(٢) ما ينتج فى دول العالم الثالث هو فى الواقع يأتى لتوفير الأولويات التى تتطلبها الدول المتقدمة .
(٣) ليس لدى دول العالم الثالث التركيز العلمى فى الصناعة والتقدم التكنولوجى ، كما هو فى البلاد المتقدمة .

إذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه العوامل فإن "التنمية" فى دول العالم الثالث لا يمكنها أن تتبع نفس الطريق الذى سلكته الدول المتقدمة . ففى الواقع أن تنميتهم تسير فى طريق أحادى يصاحبها مفاجآت ، فهناك مثلاً الطاقة النووية إلى جانب العربات التى يجرها الثيران (كما هو فى "الهند") المزارع الكبيرة الرأسمالية والمنتجون الذين يعيشون على ما ينتجون (كما فى زيمبابوى) ومصانع السيارات الكبيرة الضخمة والصيادون (كما هو فى البرازيل) وبالتالي هذا يطرح أن علم اجتماع التنمية يجب أن يهتم بدراسة الجديد . والأشكال غير المتوقعة للتنظيمات الإجتماعية والإقتصادية والتى لا يأخذها دائماً بعين الإعتبار أصحاب النظريات الذين يعتمدون دائماً على الخبرات الماضية للدول المتقدمة . إنه لا يهتم فقط بالحاضر بل وبالمستقبل على وجه الخصوص .

بدائل التنمية :

إن علم اجتماع التنمية لا يسأل فقط عن دول العالم الثالث ، ولكن يسأل الكثير من الأسئلة عن المجتمع فى دول العالم الأول (الدول الرأسمالية) ودول العالم الثانى (الدول مركزية التخطيط كما فى شرق أوربا) . فهو يطرح هذه الأسئلة لأن هناك تغيرا سريعا للموقف العالمى والذى يظهر فيه الإرتقاء والعدل كما هو فى المجتمعات الأوربية والأمريكية حيث نجد السياسة والثقافة عُرْضَة للتساؤلات الكثيرة . ويلخص "روبرت كوهين" هذه النقاط عندما يقوم بفحص الأسباب الاساسية عن لماذا ينظر إلى نظرية التحديث على أنها غير كافية وعلى وجه الخصوص بعد هزيمة الولايات المتحدة فى "فيتنام" عام ١٩٧٣م . (أنظر إطار ٩ - ٥) .

إطار ٩ – ٥

التنمية والمجتمعات النامية :

... إن المتغيرات فى العالم الخارجى هى التى أدت إلى كسر نظرية التحديث ... دعنى أحدد هنا نقطتين أساسيتين فى الضمير ، أولاً : فى مجتمع يتكون من الفلاحين (كفيتنام) نجدها تقف بقوة فى وجه القوة العالمية للولايات المتحدة ، بل وهزمتها . فى هذه الحالة ظهرت التكنولوجيا والرقى المادى على أنها أقل أمام عقول الناس الفائزين ، من الآن فصاعدا أقل بالنسبة لأنتصار قلوب وعقول الناس فى تفكيرهم . ثانيا : من قلب المجتمعات الصناعية ، فهناك أزمات روحانية ، وأخلاقية يشار إليها بنمو الثقافات المضادة ... والتى تناقش ، ما قيمة قيام مجتمع على المعاملات النقدية . هناك نماذج شيقة فى مجتمعات قبل الصناعة ... إلى جانب وجود الأديان الشرقية التى تؤكد على اليقظة الروحية ، وتحبذ الوضوح والصراحة فى العلاقات الإجتماعية والتى تبدو واضحة عن الرغبة فى التحسن المادى . وتحت تأثير هؤلاء والتغيرات الأخرى ، فأصبحت نظرية التحديث من الصعب ابقائها والحفاظ عليها .

(Robin cohen, The sociology of Development and the Development of Sociology, Social Science Teacher, 12, no. 2, 1982, pp. 52 - 57.)

هناك إهتمام فى الأديان الشرقية بطريقة "زن" Zen way تذكر ما ذكره "ساهلين" فى الفصل الثانى ، التقرير الخاص بنادى روما "حدود النمو" من "ميدوس" D. H Meadows et al., Earth Island Ltd, London, 1972 وأزمة البترول سنة ١٩٧٣م ، وانهزام الولايات المتحدة فى "فيتنام" (كل هذه العوامل فى الستينيات والسبعينيات) كونت خلفية ضرورية لإعاد تقييم الحياة فى الدول المتقدمة صناعياً . وكان هذا مثار النقد "للمادية" ، و (سباق الفأر) وأفكار "إليش" (أنظر الفصل السابع) هى كل نتاج ذلك الوقت ، بينما هناك إهتمام بالأفكار السائدة فى دول العالم الأول وتعزف أنغامها ، أى تجد لها صدى فى دول العالم الثالث التى تعانى من مشاكل هى فى الواقع مختلفة كلية والتى تتضمن البناء الأيكلوجى (البيئى) لخطط التنمية الذى يهدف إلى وجود مستشارين أجانب . أحد نتاج هذا النقد هو نمو الحركات البيئية والتى تُعرف "بالحركة الخضراء" . فكثير من التعليقات الناقدة للمجتمعات الصناعية تجد لها معجبيها وتجعلنا نفكر كثيراً فى القوة النووية ، ومصادر الطاقة ، والأغذية

الصحية ، وطابع الحياة عامة . إن العرض للحصول على معادن رخيصة ومصادر أخرى للطاقة الطبيعية هى جزء من المشاكل التى سببها أغنياء العالم للفقراء وهذا ينطبق على دول العالم الثالث . ولكن "الحركة الخضراء" لها تأثيرها أيضاً . وهناك مجالات كثيرة تلقى اهتمام ممن يعقدون مناظرات خاصة بالتنمية مثل الحصول على حلول وسط أو مناسبة ، والحصول على "تكنولوجيا" وعدم سيطرة رأس المال ، والتحديث فى الطرق الزراعية ، واستحسان القيم ، وامكانية التنمية الصحية والثقافية والزراعية فى دول العالم الثالث . عشرون سنة مضت ولم يفعلوا شيئاً ولكن ينبغى أن نأخذ فى الإعتبار خطورة "المثالية" والتى سبق وذكرتها فى الفصل الثانى ، وينبغى ألا نستبعد كل الأمور الفنية (التكنولوجية) والفوائد المادية للصناعة و "التجديد" . إن دول العالم الثالث قد تغيرت وسوف يستمر التغير . وأحسن مستقبل "للتنمية" ممكن الحصول عليه هو خليط من (إعادة الإكتشاف) ، واستحسان الممارسات القديمة أو التقليدية ، والأفكار والتكنولوجيا ، والثقافة والأفكار الخاصة بدول العالم الأول . لكننا كعلماء اجتماع لابد أن نتذكر انه يمكن حدوث ذلك فقط إذا ما أراد الناس حدوثه وفى امكانهم أن يفعلوا ذلك أو يحققوا ذلك إذا ما حصلوا على القوة الاجتماعية التى تحمى مصالحهم على المدى البعيد . (إنظر إطار ٩ – ٦) .

إطار ٩ – ٦

تآكل التربة ، المحافظة والمجتمع : –

هذا المقتطف من كتاب أحد الجغرافيين ، فهو هنا يعرض لتآكل التربة ، واستهلاك الأرض فى إطار سياسى واجتماعى .

... المشاريع العملية ، حتى ولو كانت على مساحة صغيرة لابد وأن تُستَخْدَم فى تغيير عقول الناس ، وخاصة عن العلاقات التى تربطهم بعضهم مع بعض وتربطهم مع البيئة . فالحراج * الإجتماعى بالمعنى الصارم للكلمة (هى يحرجها من أجل الاحتياجات المحلية ، فالمجتمع المحلى المستفيد) استخدام التكنولوجيا لصغار المزارعين ، مثل زراعة الغابات ، صغار التعاونيات يغامر بشق التربة ويستخدم الأرض ويتفادى تآكلها مع استخدام أنساق تُؤَمِّن السيطرة على المياه المحلية ، تشجير الأرض ، استخدام الوقود من الأخشاب ،

* حرج الشىء : أى عمل سوراً أو حاجزاً حوله .... [المترجمة] .

المصادر المائية وما شابه ذلك ... تستخدم كلها بواسطة مستخدمى الأراضى المحلية فى بيئتهم وعمل صيانة ناجحة . تلك هى أنماط المشاريع البيئية والتى تعطى نتائج بطيئة ... ودائماً ما تتاح لها فرص أفضل لإثبات وجودها إذا ما قل اعتمادها على الحكومة المركزية . إن التنظيمات المحلية للفلاحين ، والإتحادات التجارية الريفية والجماعات النسائية والجماعات الحزبية الهشة ، يمكن تشجيعها مادياً عن طريق تنظيمات متطوعة وغير حكومية ، ولكن المشاريع الصغيرة أو القروض الصغيرة ربما تحدث الجوع ، ودائماً يجب عليها أن تواجه كثيراً من الضغوط من الحكومة المركزية ... والأرباح المحلية ... ولا يمكن أن يأملوا فى أن تكون هى الإجابة للمحافظين لأنها تكون فى مواجهة مصالح قوية سبق شرحها فى هذا الكتاب – (ولكن) ... الدول والحكومات والبيروقراطيات لم تكن أبداً فى حالة إنسجام ، وهناك كفاح من أجل القوة ، وصراع من أجل المصالح ... داخل الحكومات والذين يحافظون على التربة دائماً يحثون السياسيين بنجاح ليقابلوا اهتمامات أو مصالح الأفراد فى الحكومة وفى مكاتب السياسيين .

(Blaikie, P. M., The Political Economy of Soil Erosion, Longman, Harlow, 1985, pp. 155 - 156.)

ملخص : –

تبين فى هذا الفصل أنه لا يمكن تحديد وتعريف "التنمية" بسهولة أو قياسها . هى بعد كل شىء مصطلح سياسى وعاطفى . وكما يقول علماء الإجتماع بأنهم سوف يتبعون نصيحة "فيبر" وطريقته . فقد قال أن علم الإجتماع لابد أن يفهم المعانى العقلانية للمواقف الإجتماعية ومن يقوم بها وبناءً على هذه النصيحة نرى أن التنمية ستعنى حتماً معانٍ مختلفة لمختلف الأفراد والجماعات الإجتماعية . علم الإجتماع يقول لنا القليل عن الأسباب الإجتماعية لمعتقدات الناس فى "التنمية" ، كيف يحاولون فرض هذه الآراء على الآخرين ، وكيف يمكن أن تكون لا قوة لها للتعبير ، ولتحقيق الأحلام لحياة أفضل .

Bibliography : قائمة ببليوجرافية

Abdalla, I-S., Que es el Tercer Mundo, in Guia del Tercer Mundo (Mexico: Periodistas del Tercer Mundo 1981).

Amin, S., Uneven Development (Harvester Press 1976).

Archer, J. and Lloyd, B., Sex and Gender (Penguin Books 1982).

Bacdayan, A. S., Mechanistic Cooperation and Sexual Equality Among the Western Bontoc, in Schlegel, A. (ed.), Sexual Stratification : a cross-cultural view (New York: Columbia University 1977).

Barrett, M., Women's Oppression Today (Verso Editions 1984).

Barnett, T., The Gezira Scheme: an illustion of development (Frank Cass and Co. 1977).

Bellah, R., Tokugawa Religion: the values of preindustrial Japan (Glencoe: Free Press 1957).

Bendix, R., Max Weber: an intellectual portrait (Methuen 1962).

Bernstein, H., Corrigan, P. and Thorpe, M., Developed or Being Developed? (open University Press 1983).

Black, C. E., The Dynamics of Modernisation (New York: Harper and Row 1966).

Blaikie, P. M., The Political Economy of Soil Erosion (Longman 1985).

Boserup, E., Woman's Role in Economic Development (George Allen and Unwin 1970).

Brandt, W., North - South: a Programme for Suvival (Pan Books 1983).

Braudel, F., The Structures of Everyday Life (William Collins and Sons 1981).

Byres, T. and Crow, B. With Mae Wan Ho, The Green Revolution in India (Open University Press 1983).

Castells, E., The Urban Question: a Marxist approach (Edward Arnold 1977).

Cohen, R., The Sociology of Development and the Development of Sociology, Social Science Teacher, 12, no. 2, 1983.

Cole, G. D. H. and Filson, A. W., The British Working Class Movement: selected documents 1789 - 1875 (New York: St. Martin's Press 1967).

Chodak, S., Societal Development: five approaches with conclusions from comparative analysis (New York: Oxford University Press 1973).

Croll, E., Chinese Women Since Mao (Zed Press 1983).

Crow, B. and Thomas, A., with Jenkins, R. and Kmble, J., Third World Atlas (Open University Press 1983).

Dahrendorf, R., Essays in the Theory of society (Routledge and Kegan Paul 1968).

Dinham, B. and Hines, C., Agribusiness in africa (Earh Resurces Ltd 1983).

Djilas, M., The New Class (Thames and Hudson 1957).

Dore, R., The Diploma Disease (George allen and Unwin 1976).

Doyal, L., The Political Economy of Health (Pluto Press 1977).
Durkheim, E., The Division of Labour in Society (Toronto: Collier Macmillan 1964).
Durkheim, E., The Rules of Sociological Method (New York: The Free Press 1964).
Edwards, C. B., The Fragmented World (Methuen 1985).
Eisenstadt, S. N., Tradition, Change and Modernity (New York: John Wiley and Sons 1973).

Engels, F., The Condition of the Working Class in England (Basil Blackwell 1958).
Etienne, M. and Leacock, E., Women and Colonization: anthropological prespectives (New York: Praeger 1980).

Firth, R. and Yamey, B., Capital, Savings and Credit in Peasant Societies (Allen and Unwin 1964).
Firth, R. (ed.) Themes in Economic Anthroplogy (Tavistock 1970).
Fletcher, R., The Crisis of Industrial Civilisation (Heinemann 1974).
Fontana Dictionary of Modern Thought, edited by Bullock, A. and Stallybrass, O. (Fontana 1986).
Foster, G., Traditional Cultures and the Impact of Technological Change (New York: Harper and Row 1962).
Frank, A. G., Capitalism and Underdevelopment in Latin America (Penguin Books 1971).
Freeman, D., Margaret Mead and Samoa (Cambridge University Press 1983).
Friedmann, D., Pegional Development Policy (Boston. MIT 1966).

Gerschenkron, A. Economic Backwardness in Historial Perspective (Cambridge, Mass.: Harvard University Press 1962).
Golbourne, H. (ed.), Politics and State in the Third World (Macmillan 1979).

Harriss, J. C. (ed.), Rural Development (Hutchinsion 1982).
Hasell, M., The Nature of Poverty (Macmillan 1975).
Hobsbawm, E. J., Worlds of Labour (Weidenfeld and Nicolson 1984).
Hofstadter, R., Social Darwinism in American Thought (Boston: Beacon Press 1959).
Hoselitz, B. F. and Moor, W. E. (eds.), Industialization and Society (unesco-mouton 1966).
Humphrey, C., Karl Marx Collective (Cambridge and Paris: Cambridge University Press and Editions des Sciences de l'Homme 1983).

Illich, I., Deschooling Society (Penguin Bools 1975).
International Bank for Reconstruction and Development, The Wolrd Development Report 1983 (Washington: IBRD 1983).
International Bank for Reconstruction and Development, The World Development Report 1985 (Washington: IBRD 1985).

Kerr, K. Dunlop, J. and Harbin, F., Industrialism and Industrial Man (Heinemann 1960).
The Koran, translated by N. J. Dawood (Penguin Books 1968).
Kuper, A. and J., The Social Science Encyclopaedia (Routledge and Keggan Paul 1985).

Leghorn, L. and Parker, K., Women's Worth (Routledge and Kegan Paul 1981).
Lewis, O., La Vida (Secker and Warburg 1967).
Levy, M. J., Modernization and the Structures of Society (Princetion: Princeton University Press 1966).
Long, N., Social Change and the Individual: a study of the social and religious responses to innovation (Manchester University Press 1968).

Malinowski, B.,Coral Gardens and their Magic (George Allen and Unwin 1922).
Malinowski, B., Argonauts of the Western Pacific (Routledge and Kegan Paul 1961).
Mao Tse-tung, On Kruschev's Phoney Communism and its Historical Lessons for the World (Peking: Foreign Languages Press n.d.).
Mayer, P. (ed.), Black Villagers in an Industrial Society (Capetown: Oxford University Press 1980).
Meadows, D. H., The Limits to Growth (Earth Island Ltd. 1972).
Midgley, M., The Origins of the Specious, New Statesman, 22 November 1985.
Milliband, R., The State in Capitalist Society (Weidenfeld and Nicolson 1969).
Moore, W. E., Social Change (New Jersey: Prentice Hall 1964).
Moore, B., The Social Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and peasant in the making of the modern world (Penguin Books 1966).
Morris, M. D., Measuring the Conditions of the World's Poor (Pergamon Press 1979).

Nyerere, J. K., Dar-es-Salaam Daily News, 21 May 1971.
Nyerere, J. K., Freedom and Development (Dar-es-Salaam: Oxford University Press 1973).
Nzula, A. J., Forced Labour in Colonial Africa (Zed Press 1979).

Oxaal, I., Barnett, T. and Booth, D., Beyond the Sociology of Development (Routledge and Kegan Paul 1975).

Parkin, D. J., Palms, Wine and Witnesses (Intertext Books 1972).
Parsons,T., The Evolution of Socicties, edited and with an introduction by Toby, J. (Englewood Cliffs: Prentice Hall 1977).
Patterson, S., Dark Strangers (Tavistock 1963).
Peace, A., Choice, Class and Conflict (Harvester Press 1979).
Pons, V., Stanleyville (Oxford University Press 1969).
Poulantzas, N., Political Power and Social Classes (New Left Books 1973).

Redfield, R., The Primitive Wold and its Transformations (New York: Cornell University Press 1953).
Richards, E., Ahistory of the Highland Clearances (Croom Helm 1983).
Rogers, B.,The Domestication of Women (Kogan Page 1980).
Rose, G., Deciphering Socillogical Research (Macmillan 1979).
Rose, S., Kamin, L. and Lewontin, R., Not in Our Genes (Penguin Books 1984).
Rostow, W. W., The Stages of Economic Growth: a non - communist manifesto (Cambridge University Press 1960).

Safa, H. I. (ed.), Towards a Political Economy of Urbanisation in Third World Countries (New Delhi: Oxford University Press 1982).

Sahlins, M., Stone ag Economics (Tavistock 1974).

Sen, A. K., Poverty and Famines (Clarendon Press 1984).

Shanin, T. and Alavi, H. (eds.), Introduction to the Sociology of Developing Societies (Macmillan 1984).

Skillen, R., Ruling Illusions: Philosophy and Social Order (Harvester Press 1977).

Smith, A.,The Wealth of Nations (Penguin Books 1973).

Spencer, H., The Evolution of Society (chicago: University of Chicago Press 1967).

Spender, D., Man Made language (Routledge and Kegan Paul 1980).

Streeten P. and Jolly, R. (eds.), Recet Issues in World Development (Pergamon 1981).

Thomas, A. and bernstein, H., The Third Woral and Development (Open University Press 1983).

Thompson, E. P., The Making of the English Working Class (Penguin 1978).

Wallerstein, I., The Modern World System (New York: Academic Press 1974).

Warren, B., Imperialism: Pioneer of Capitalism (Verso Books 1980).

Weber, M., The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (Unwin 1967).

Wolf, E., Peasant Wars of the Twentieth Century (Faber 1971).

Worsley, P.M., The Three Worlds (Weidenfield and Nicholson 1986).

Young, K., Wolkowitz, R. and McCullagh, R., Of Marriage and the Market (CSE Books 1981).

الفهـــرس

الجـزء الثـانى : المدينـة والريـف

الجزء الثالث : الخطوط العامة لعلم اجتماع التنمية

* * *

رقم الإيداع	٩٢/٨١٨٥
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977 - 20 - 3823 - 6

٢٠ / ٩١ / ٣

جولدن ستار للطباعة